القسم الأول

مقالات دينيـة

١ ـ القوى الثلاث فى الإسلام (*)

قبل أن أتحدث عن القوى الثلاث فى الإسلام أحب أن أبين أن لهذه القوى الثلاث قاعدة تنطلق منها، تلك هى النفس البشرية، ومن هنا يحرص الإسلام على أن تكون هذه القاعدة واضحة المعالم، مشرقة المسالك، ذلك لأن النفس البشرية تموج بشتى الغرائز. فى بحر لجى من الشهوات العارمة والرغبات الصارخة.

والإيمان بالله، والانقياد للإسلام يتطلبان حربا عنيفة لا هوادة فيها ضد تلك الغرائز، وضد تلك الشهوات، فإذا ما انتصر المسلم فى ميدان نفسه، ومجال طبيعته أصبح قوى الجانب، عزيز النفس، صلب الإرادة. والمجتمع الذى يضم أمثال هذا المسلم مجتمع قوى يسير نحو العزة والكرامة، نحو الشرف والمجد، نحو الحياة والخلود.

أما هذه القوى الثلاث فانها تتمثل فى: قوة المبدأ، وقوة التضحية، وقوة الاتحاد.

١ ـ وقوة المبدأ فى نظر الإسلام أساسها أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الإيمان بالله فوق كل اعتبار، وبذلك لا نرى الدنيا فى مجال الإيمان إلا مجردة من كل قيمها الزائفة، وبريقها الخلاب، وإذا تجردت الدنيا من معانيها التى يفتتن بها الناس، أصبحت عارية كأنها جيفة وطلابها كلاب، لهذا كان شعار المؤمنين ازاءها: «ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا».

وإذا تقررت هذه الحقيقة فى نفس المسلم زاد إيمانه بمبادئه، لا يسيطر على عقله هوى ولا يستبد بنفسه مرض، لأن الرؤية أمامه واضحة لا تحتاج إلى دليل أو برهان.

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألب عليه الشرك، ويقف فى وجهه الطغيان، ويلقى من قومه ما يلقى عنتا وإيذاء، سخرية واستهزاء. كل ذلك ليتخلى عن مبادئه، فلم يفلحوا.

وتعرض عليه الدنيا بزينتها الخلابة، وذهبها البراق، وجاهها، وشرفها، ومجدها، وسلطانها وإذا بهذا كله أمام قوة المبدأ كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف، قوة المبدأ التى لبست شعار العزة «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

(*) نشر فى مجلة منبر الإسلام ـ مارس سنة ١٩٦٨ ـ القاهرة.

إنه طريق واحد لا ينحرف ولا يميل، رسمه الإسلام لأتباعه، حقق السير فيه محمد عليه السلام فى قوة خلاقة، تعبّد الطريق، لتزيل الصخور وتوضّح المعالم.

نعم، لقد علم محمد عليه السلام بسلوكه، واستمساكه بالحق، وصموده أمام الباطل، علم أصحابه كيف تمتزج قوة المبدأ بمشاعرهم ووجدانهم، بضمائرهم وإحساسهم، لا يبالون بقوة، ولا يحفلون بطغيان، ألم يهزأ بلال بمشركى قريش، وهم العتاة الصناديد، وهو العبد الأسود؟

لقد قالها كلمة رنت فى جوانب الدنيا أصداؤها وضربات السياط تلهب ظهره: أحد، أحد، ألم يقف أبو بكر وحده بعد أن ارتدت معظم القبائل ليعلن القتال فى بسالة نفس، وشجاعة قلب، وقوة ايمان؟ وشعاره: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإنّ الزكاة حق المال. والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه.

وهكذا يعلمنا الإسلام أن نكون أقوياء المبادىء، لا نضطرب من شىء، وكيف نضطرب ومعنا الاستقرار؟ ولا نخاف من شىء. وكيف نخاف ومعنا الطمأنينة؟ ولا نخشى مخلوقا. وكيف نخشى ومعنا الله؟

ألا فلتعلم إسرائيل أن هذه الأمة العربية المسلمة لا تعرف الهزيمة، ولا ترضى بالاستسلام. وكيف تعرف الهزيمة وتاريخهم الطويل يفيض بالانتصارات الرائعة، وكيف ترضى بالاستسلام وأبناؤها أتباع محمد الذى وقف فى وجه الشرك المسلح، وهو الأعزل من كل سلاح مادى إلاّ سلاح الإيمان، إلا سلاح المبدأ، إلا سلاح العقيدة، ثم تهاوت أسلحة الشرك أمام قوة الإيمان ولنا فى نبينا أسوة حسنة لا ننحرف، ولا نتراجع، ولا نضعف، فارحلى قبل أن تدور عليك الدائرة، وحينئذ تعضين بنان الندم.

٢ ـ والاسلام قوة فى التضحية: والتضحية ثمرة الجهاد، والجهاد سنام الإسلام وذروته فمن أجل الله، ومن أجل الحق، ومن أجل القيم، ومن أجل الوطن، ومن أجل الكرامة والحرية والشرف أمرنا الله أن نعد أنفسنا إعدادا كاملا لنرهب عدو الله وعدونا «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم».

وإذا ما حمى الوطيس، واشتدت المعركة، فلا فرار ولا جبن، ولا خور ولا ضعف، ولا ذلة ولا استسلام، فليس أمام المسلم فى هذا المجال الا أن يقاتل فى ضراوة وعنف ليتوج قتاله

باحدى الحسنيين النصر أو الشهادة ومن ثم توعد الإسلام هؤلاء الذين يولون الأدبار. توعدهم بالعذاب الشديد، غضب الله، وسوء المصير «ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير».

ولو تصفحنا التاريخ الإسلامى لنقف على المعارك التى خاضها المسلمون منذ معركة بدر لأطل علينا من خلال هذه المعارك الانتصار الرائد فى - ضوح وإشراق، ولم يكن هذا الانتصار إلا ثمرة من ثمار التضحية بالنفس أو بالمال، بكل ما يمتلك المسلم فى هذه الحياة، يضحى به رخيصا من أجل هذا الدين، وكانت الشهادة التاج الذى يبحث عنه بعد أن يؤدى ثمنه من القتل والقتال، والجهاد والاستبسال، بل إنه فى سبيل ذلك يتلقى ضربات السيوف فى لذة ونشوة كأنها قُبَل أصدقاء من الملائكة يلقونه ويعانقونه.

يحدثنا التاريخ أن النبى عليه السلام فى بدر قال: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فقال عمير بن الحمام: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: لم تبخبخ؟ فقال: رجاء أن أكون من أهلها، فأخذ تمرات فجعل يلوكهن، ثم قال: والله إن بقيت حتى آكل تمراتى هذه، إنها لحياة طويلة فنبذهن وقاتل، وهو يقول:

ركضنا إلى الله بغير زاد

إلا التقى، وعمل المعاد

والصبر فى الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد

ولا زال يقاتل حتى قتل.

رعلى هذا النهج نرى حارثة الصحابى الجليل يحلم بالجنة، ويتمنى أن يخوض غمرات القتال من أجلها، لأنه أدرك بحسه المرهف، وإيمانه العميق أن قمة السعادة، تتمثل فى الشهادة ليفوز برضوان الله.. يحدثنا فى ذلك أنس رضى الله عنه، قال: بينما رسول الله ﷺ يمشى إذا استقبله شاب من الأنصار، فقال له النبى ﷺ: كيف، اصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمنا بالله حقا، فقال له: انظر ما تقول: فإن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال يا رسول الله: عزفت نفسى عن الدنيا، فسهرت ليلى، وأظمأت نهارى، فكأنى بعرش ربى بارزا، وكأنى

أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها؟ وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها؟ فقال له النبى عليه السلام: أبصرت فالزم، عبد نور الله الإيمان فى قلبه.

ولكن حارثة مع هذه البشرى التى بشرهُ بها النبى بشرى المعرفة، والوصول إلى الحقيقة لم تقنع نفسه بما وصل إليه، لأنه طريق لغاية، ومقدمة لنتيجة، لهذا طلب من النبى عليه السلام أن يدعو له بالشهادة، فقتل يوم بدر شهيدا، فجاءت أمه إلى رسول الله ﷺ، فقالت يا رسول الله: قد علمت منزلة حارثة منى، فإن يكن فى الجنة أصبر، وإن لم يكن فى الجنة ترى ما أصنع؟ فقال النبى عيه السلام: أو هبلت؟ أجنة هى؟ إنها جنات، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى، فرجعت وهى تضحك، وتقول بخ بخ يا حارثة.

وها هو ذا خالد بن الوليد، سيف الله المسلول، والقائد الملهم، والجندى الشجاع، والبطل المقدام خاض المعارك فى سبيل الله، وشهد المواقع التى تشيب لها الولدان ـ كانت أمنيته الغالية أن يظفر بالشهادة، ولكنه لم يقدر له ذلك رغم تعرضه للموت مئات المرات، وهنا يملأ قلبه الحزن ويستولى على نفسه الأسى، فيقول فى أسف مؤلم «لقد طلبت القتل فى مظانه فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى وما من عمل شيء أرجى عندى بعد أن لا إله إلا الله من ليلة بتها، وأنا متترس، والسماء تهطلنى بمطر إلى صبح حتى نغير على الكفار، ثم قال: إذا أنا مت فانظروا فى ملابسى وفرسى فاجعلوه عدة فى سبيل الله.

لهذا أستطيع أن أقول: إن هؤلاء الرجال الذين تعلموا فى مدرسة محمد عليه السلام قوة المبادىء وقوة التضحية، من أجلها استطاعوا أن يسيطروا على ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من المحيط إلى الخليج، وقد أثارت بطولة أبناء هذه المدرسة المحمدية شاعرية أبى دلف الخزرجى فقال:

فنحن الناس كلّ الناس
س فى البرّ وفى البحر
أخذنا جزية الخلق
من الصين إلى مصر

إلـــى طـــنـــجـــة بـــل فـــى كـــل

أرض خـــيـــلـــنـــا تـــســـرى

لـــنـــا الـــدنـــيـــا بمـــا فـــيـــهـــا

مـــــن الإســـــلام والـــكـــفـــر

ويعجب الإنسان كل العجب إنه على الرغم من هذه الانتصارات الهائلة، وعلى الرغم من قوة الباطل الذى دمغوه، وعلى الرغم من المعارك المتعدّدة التى فتحوا بسببها البلاد، ودكوا المعاقل، وهدموا الحصون ـ أقول على الرغم من ذلك لم يؤثر عنهم على مدى تاريخهم الطويل، أنهم غدروا أو خانوا أو مثلوا بالقتلى أو اعتدوا على الضعفاء، أو تعرضوا للنساء والأطفال، بل كان شعارهم فى حروبهم التى خاضوها «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله» وبهذا الشعار إذا سلوا السيف سلوه بقانون وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون.

ويعجبنى فى هذا المقام حديث «بنيامين» البطريق الأعظم للقبط عندما فتح العرب مصر قال البطريق: «كنت فى بلدى، وهى الإسكندرية فوجدت بها أمنا من الخوف، واطمئنانا بعد البلاء، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة «الروم» وبأسهم، وقد فرح القبط كما تفرح الأسخال، إذا ما حلت لهم قيودهم، وأطلقوا ليرتشفوا من لبان أمهاتهم».

وأبلغ من هذا الحديث حديث القائد الأعلى لحصن «بابليون»، يتعجب هذا القائد، كيف يفتح العرب مصر وغيرها فى أيام قليلة. ويقول: «ماذا فعل أربطون؟» (قائد من كبار قواد الروم) وماذا فعل «تيودور» (القائد العام لجنود الروم فى مصر).

لقد شهدت حرب هؤلاء ـ أعنى العرب ـ فى مواطن كثيرة، إنهم يخرجون اليك كأنهم سراب الصحراء، لا ندرى من أين جاءوا، ثم نراهم ينصرفون عنك حتى لا نسمع عنهم شيئا كأنهم غاصوا فى رمال الصحراء، ثم ما يلبثون أن يعودوا إليك، وأنت لا تتوقع عودتهم كأنهم أشباح لا تعوقهم مادة هذه الأرض».

لا تعجب أيها القائد، إنهم جنود الحق، وتلاميذ محمد، ورسل الهداية إلى العالم. وإن العرب فى معركتهم المقدسة ضد إسرائيل سيستلهمون هذه المثل، ويصلون حاضرهم بماضيهم ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله.

قرابتهم قرابة الروح للروح، والقلب للقلب، وهم على اختلاف أقطارهم، وتباعد ديارهم إخوة، وما دام الإسلام أبا لـهذه الأمة، فلابد أن يعتصـم الأبناء بحبله لأن فى هـذا الاعتصام عزة «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» لأن التفرقة إذا أصابت شعبا جعلته كالرميم، لا يرجى له حياة، يرمى بالذلـة ولا يحس ، وتداس كرامتـه ولا يشعر، ويساق إلـى الهوان ولا يثور.

بمقتضى هذه الـوحدة بين أبناء الأمة، وحدة العقيدة، ووحدة الـوجدان، ووحدة المشاعر، تستـطيع الأمة إذا حزبـها أمر، أو ألم بهـا خطب، أو انتـابتها أزمة أن تـتماسك لإعادة الـبناء، وإزالة آثار العدوان.

وبعد، فـقد علمـنا التاريـخ أن العرب حيـنما يواجـهون عدوا مشـتركا ينـسون أنفسـهم ويكونون كـالجسم الواحد إذا اشتكـى منه عضو تداعت لـه سائر الأعضاء بالسـهر والحمى. وفى مؤتمر الخرطوم، وغيره ما يجعلنا على ثقة بأن النصر لآت، ويسألونك متى هو، قل عسى أن يكون قريبا.

٢ ـ من منهج النصر فى الإسلام (*)

النصر كلمة ما أحلى وقعها فى النفوس، وما أجمل أثرها فى القلوب، إنها نغم عذب، إنها متعة الحياة، وعز الدنيا، وسر السعادة، إنها نشيد ملائكى يأسر النفوس بسحره ويستولى على المشاعر بجماله، إنها تحية الخلود، ولغة السلام.

ولما كان الإسلام يحرص كل الحرص على أن يكون النصر شعار أبنائه فى كل جيل وفى كل عصر حدد له منهجا، واضح المعالم، بين السمات، لأنه حليف العزة والكرامة، وتوءم الحرية والاستقلال وعماد العقيدة، وحصن الوطن، ودرع السلام، ولا يمكن تحقيق هذه الأهداف إلا بمنهج سليم مخطط لا على الفروض والنظريات، ولكن على الواقع والتجربة ليكون الاستناد إليه بعيدا عن الشبهة، فما هو إذن هذا المنهج؟

إنه يتجلى فى هذه الخطوط العريضة:

١ ـ التربية على الاستهانة بالحياة.

٢ ـ التجرّد فى المعركة لله وحده.

٣ ـ ديمقراطية القيادة، والالتفاف حولها على أساس من الحب والفداء.

أما التربية على الاستهانة بالحياة، فإن الإسلام جعل الدنيا مزرعة الآخرة، وحذر من الركون إليها والاعتماد عليها، والثقة بها، لأنها ظل زائل، وعرض فان.

ولسلطانها على النفوس بحكم الغريزة والطبع صورها القرآن الكريم فى صور مختلفة تنفر منها الطباع السليمة وتشمئز من منظرها النفوس الزكية، هى صور تدل على تفاهة الحياة وحقارتها، وحسبها أن الفناء شعارها، والخراب ديدنها، والموت غايتها.

ففى سورة «الكهف» يصورها الله تعالى بقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ آية ٤٥.

وفى سورة «يونس» صوّرها الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ

(*) نشر فى مجلة منبر الإسلام ـ يونيو سنة ١٩٦٨ ـ القاهرة.

السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ آيـة ٢٤.

وفى سورة «الزمـر» صوّرها الله تعالى بـقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ آية ٢١.

وفى سورة «الحديد» صوّرها الله تـعالى بقوله: «اعلموا أنما الحياة الدنيـا لعب ولهو وزينة وتفاخر بـينكم وتكاثر فى الأمـوال والأولاد كمثل غيث أعجب الـكفار نباته، ثم يهـيج فتراه مصفرا، ثم يكون حطاما» آية ٢٠.

وإنى أيها القارىء حينما أعدّد لك تصوير الـقران الكريم للحياة لا أريد أن أبغضك إليها أو أكرهك فيها، لتنظر إليها فى يأس وقنوط، وذل واستسلام، فإن ذلك ليس من روح الإسلام ولا يعتبر هدفا من أهداف القرآن، وانما قدمـت ما قدمت لأبين لك أن الحياة الدنيا إذا كانت هذه طبيعتها، فإن العاقل الحر يعيش فيها عـلى مقتضى هذه الطبيعة، لا يأتمر بأمرها، لا يأسره بريقها، لا يخدعه جمالها، فإن هذا هو الانحراف بـعينه، وعلى المسلم أن يعرف هذه الحقيقة فيـؤمن بأن الحيـاة أيام قصيـرة وما أحراه فى مـجالها أن يـكون العز رائـده، والشرف غايـته، والجهاد فـى سبيل الله، وفـى سبيل الوطـن تاجه المرصـع بنبضات الـقلوب، وحرارة المـشاعر ولهيب العواطف.

وقد رسم مـحمد عليـه السلام صورتين متقابلـتين للحيـاة فى بيان أخاذ وأسـلوب رائع صور الحيـاة فى جانبها الـسلبى بأنهـا فتنة لهـؤلاء الذين عميت أبـصارهم، وغفت عقـولهم ومرضت قلوبهم فقال عليه السلام فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه:

تعس عبدالدينار، وعبدالدّرهم، وعبد الخـميصة «كساء أسود مربّع له أعلام وخطوط» إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش (دعاء عليه بالهلاك).

وصور الحياة فى جانبهـا الإيجابى بأنها فى نظر هؤلاء الذين صحت عـقولهم واستقامت نفوسـهم وامتلأت بنور الإيمـان قلوبهم ـ مزرعـة للآخرة، شرفها الجـهاد، وسعادتها الـنصر والاستشـهاد، فيقول فى الحـديث ذاته: «طوبى لعـبد آخذ بعنـان فرسه فى سبيـل الله، أشعث

رأسه، مغبرة قدماه، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة وإن كان فى الساقة كان فى الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع».

وما دامت الحياة الدنيا على هذا المستوى فلا غرو أن يربى الإسلام أبناءه على الاستهانة بها فى سبيل الله، فى سبيل الشرف، وفى سبيل العرض والكرامة، ولنا فى تاريخنا الإسلامى والعربى ما يدفعنا إلى أن نسير فى نفس الطريق نحو النصر ونحو الشهادة.

هذا هو أنس بن النَّضْر من أصحاب رسول الله ﷺ يمر بعد هزيمة أحد على عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار، فيقول: ما يجلسكم فقالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ. ثم قال: اللهم انى اعتذرت إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ وأبرأ اليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ، فقال: وأين يا أبا عمر؟ فقال أنس: واها لريح الجنة يا سعد!!

إنى أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل فما عرف حتى عرفته أخته ببنانه، به بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم.

وهذا عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا، فلما توجه إلى (أحد) أراد أن يتوجه معه فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله: إن بنىّ هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك، والله أنى لأرجو أن استشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة.

فقال له رسول الله ﷺ: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد. وقال لبنيه: وما عليكم أن تَدَعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة، فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيدا.

ولا أبالغ اذا قلت: إن الآباء والأبناء كانوا يتنافسون فى الالتحاق بجيش الإسلام لا يعرفون معنى للحياة غير النصر أو الشهادة.

يحدثنا خيثمة الصحابى الجليل رضى الله عنه فيقول: «لقد أخطأتنى وقعة بدر، وكنت والله عليها حريصاً حتى ساهمت ابنى فى الخروج، فخرج سهمه فرزق الشهادة. وقد رأيت

البارحة ابنى فى النوم فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها يقول: الحق بنا ترافقنا فى الجنة، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا، ثم يسرع إلى رسول الله ﷺ ليحدثه برؤياه ويقول: وقد ـ والله ـ يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته فى الجنة، وقد كبرت سنى، ورق عظمى، وأحببت لقاء ربى، فادع الله يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة سعد «ابنه» فى الجنة، فدعا رسول الله ﷺ بذلك فقتل فى أحد شهيدا.

لعلك أيها القارىء أحسست فى نفسك بعد هذه الصورة الرائعة من الاستهانة بالحياة فى سبيل الله، وفى سبيل الشرف، لعلك تحس أنك معى فى دعوة جنود الإسلام والعرب الرابضين على خطوط النار أن يواجهوا أعداء الله، وأعداء الحرية، وأعداء الإنسانية أن يواجهوا الصهيونية اللعينة، والاستعمار المجرم بهذه المعانى الكريمة، وعلى مثال هذه الصور الرائعة، كل دام يراق رخيص فى سبيل المبدأ، كل روح تصعد إلى ربها ثمنها عند الله كبير وما الثمن؟ جنة عرضها السموات والأرض.

فهنيئا لهؤلاء الذين قدموا أنفسهم قربانا لله، وللوطن. وعليك أيها الجندى العربى أن تحرص على هذا المبدأ، فإنه شرف الحياة، وسرالخلود.

وأما التجرد لله وحده فى هذه المعركة، فإنه دعامة ثانية من دعامات النصر، ذلك لأن القوى البشرية مهما تسلحت للمعركة، ومهما أمدت المعركة بكل طاقاتها فإنها عاجزة ما لم تمنحها السماء قوتها الكبرى «وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى».

من أجل هذا كان الاخلاص فى المعركة طريق النصر، وطريق العزة، وكيف نخلص؟.

نخلص إذا نسينا أنفسنا، وأبناءنا، وأموالنا، وحياتنا من أجل الدفاع عن عقائدنا ومقدساتنا من أجل الحفاظ على شرفنا وأعراضنا، من أجل إنقاذ تاريخنا الكبير من المؤامرات التى تحاك حوله من أجل أن نعيش فى أوطاننا أعزاء كرماء.

وقد وضع الإسلام النقاط على الحروف ليكون المقاتل على بينة من أمره فلا يستهويه الشيطان فيسرق منه أعز ما لديه يسرق منه الحياة بغير ثمن. بغير فداء، وبذلك يضيع جهده ويتلاشى جهاده كأنه الرماد، اشتدت به الريح فى يوم عاصف.

فعن أبى موسى رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم،

والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن فى سبيل الله؟ قال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله.

نعم، انه موطن دقيق، وميزان حساس، والإخلاص هو المنقذ فى هذا المقام حينما تشتبه المواطن، وتضطرب الموازين.

بالإخلاص وحده تسيطر النفس على غرائزها الأولى، فلا مكان لمغنم، ولا موضع لفخر، وكل عمل قام به المجاهد فهو رخيص هين ما دام فى جانب الله وحتى ضربات السيوف، وطعنات الرماح، وحتى الدماء التى تنزفها الجروح لا يمن بها مسلم على ربه، وكيف يمن وقد هداه الله تعالى للإيمان «يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان».

أذكر فى هذا المقام أن النبى عليه السلام لما كسرت رباعيته وشج فى رأسه فى غزوة أحد جعل يسلت الدم عنه ويقول: كيف يصلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته وهو يدعوهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

يا لغة السماء، ما أجملك وما أروعك لقد حسمت الأمر، ونصبت ميزان الإخلاص حتى مع منبع الاخلاص، ومنار الهدى، ورحمة الله للعالمين، مع مع محمد عليه السلام.

لهذا لا نعجب حينما يحدثنا الرواة أن عبدالله بن جحش رضى الله عنه كان يناجى ربه فى المعركة متضرعا خاشعا قائلا: «اللهم أنى أقسم عليك أن ألقى العدو غدا فيقتلونى، ثم يبقروا بطنى، ويجدعوا أنفى وأذنى ثم تسألنى فيم ذلك؟ فأقول فيك».

وأما ديمقراطية القيادة، فإن القيادة دراسة وتخطيط تقوم على التعاون الكامل بين القائد والجنود، لأن المعركة معركتهم جميعا، وعلى كل جندى أن يسهم بخبراته، وبكل إمكانياته فى المعركة حتى لا تكون ارتجالا يهددها بالهزيمة والانتكاس.

ومن أجل ذلك سمح لنفسه الجندى البطل الحباب بن المنذر أن يناقش رسول الله ﷺ فى التخطيط لمعركة بدر، يقول الحباب: يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلا أنزله الله، ليس لنا أن نتقدم، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال النبى عليه السلام، بل هو

الرأى والجهاد، قال يا رسول الله : ليس هذا بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأى.

والقائد فى المعركة رمزها، فالالتفاف حوله، والتعاون معه ثمرة من ثمار النصر.

ومن سلطات هذا القائد أن يعيش فى المعركة بكل أبعادها، فيجند لها كل الطاقات، ويمدها بكل الخبرات، ويقدم لها زادا نفسيا، واجتماعيا واقتصاديا يحرق كل أسباب الهزيمة ويقضى على كل طرق الانتكاس.

وقد فهم جنود الإسلام منذ معركتهم الأولى فى بدر هذه المعانى العظيمة فسجلوها دستوراً للحياة، ونبراسا يضىء معالم النصر حينما تظلم الدنيا، وتدلهم الخطوب.

يقول الجندى سعد بن معاذ لقائده العظيم محمد بن عبدالله عليه السلام فى معركة بدر: «يا رسول الله صل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب الينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فامرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك».

ومن مقتضيات ديمقراطية القيادة فى نظر الإسلام أن يكون القائد فى وسط المعركة يلهب النفوس، ويذكى المشاعر، ويحرض المؤمنين على القتال.

يحدثنا فى ذلك البراء بن عازب رضى الله عنه أنه قال له رجل: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين قال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قومًا رماة، وإنّا لما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا، فاقبل المسلمون على الغنائم، واستقبلوا بالسهام، فأما رسول الله ﷺ فلم يفر، فلقد رأيته، وإنه لعلى بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان آخذ بلجامها، والنبى ﷺ يقول: أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبد المطلب.

ومن ديمقراطية القيادة فى الإسلام أن يتعاون القائد مع جنوده فى كل أعمال المعركة كبيرها وصغيرها، لا يتميز عن جنوده حتى فى حفر الخنادق، حتى فى نقل التراب هو جندى وقائد معا وكذلك كان رسول الله ﷺ، يروى لنا البخارى رضى الله عنه أنه كان ينقل يوم الأحزاب التراب وقد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول :

لـــولا أنـــت مـــا اهـــتـــديـــنـــا

ولا تـــصـــدقـــنـــا ولا صـــلـــيـــنـــا

فـــأنـــزلـــن ســـكـــيـــنـــة عـــلـــيـــنـــا

وثَـــبِّـــت الأقـــدام إن لاقـــيـــنـــا

إن الأولـــى قـــد بـــغـــوا عـــلـــيـــنـــا

إذا أرادوا فـــتـــنـــة أبـــيـــنـــا

صلى الله عليك أيها القائد العظيم من أجل ديمقراطيتك، أحبك جنودك، وبهذا الحب العميق قدموا أنفسهم رخيصة فى سبيل دعوتك، وفى سبيلك، لأنك رمزها ولأنك رسولها، وخضت بهم لجج المعارك فكان النصر حليفك، والعزة رائدك، علمتهم معنى التضحية والفداء فضحوا، ضحوا بكل ما يمتلكون بأنفسهم الغالية بأموالهم العديدة، بفلذات أكبادهم. هذه امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها فى يوم «أحد» فقالت وهى صابرة راضية: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرا ـ هو بحمد الله ـ كما تحبين، فأبت الا أن تراه، وتنظر إليه لتطمئن عليه، فلما رأته قالت: الحمد لله، كل مصيبة بعدك جلل «أى هينة».

وهذا مالك أبو أبى سعيد الخدرى مص جرح رسول الله ﷺ فى المعركة حتى أنقاه، فقال عليه السلام: مجه، قال: والله لا أمجه أبدا، ثم أدبر فقال النبى ﷺ: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا.

وبعد...

فان لنا من هذه الأمثلة الحية، فى تاريخنا الإسلامى والعربى ما يجعلنا أن نسير على الدرب، لنهب أنفسنا، وكل ما نملك للمعركة المقدسة ضد الاستعمار وضد الصهيونية ليعود لنا تاريخنا مشرق الصفحات بالنصر المبين على أعداء الإنسانية، شذاذ الشعوب، وذؤبان الأمم، وإن اليوم لقريب، وإن ساعة النصر لآتية، «ويسألونك: متى هو؟ قل عسى أن يكون قريبا».

٣ ـ ليس لعبدة العجل تاريخ مشرف (*)

لكل أمة من الأمم تاريخ تعتز به، وأيام تستعيد ذكراها فرحة مستبشرة فى أعياد مجيدة تعيد لهم تاريخهم المتألق، ومجدهم السالف، وعزتهم الماضية فيستلهمون منها ما يعينهم على حاضرهم، وما يرشدهم إلى مستقبلهم.

نعم لكل أمة من الأمم ماض، وحاضر، ومستقبل، ماضٍ مشرق ينير الطريق ليفسح لموكب الحاضر السير نحو المستقبل الباهر والغد المزهر. فىّ خطوات قوية يحدوه الأمل ويقوده المجد.

وليس لبنى إسرائيل على مدى تاريخهم الطويل، ماض مشرق، ولا حاضر مشرف ولا مستقبل مرجو فقد أصابتهم اللعنة، وضربت عليهم الذلة، وعاشوا على ظهر هذه الأرض صورة مشوهة للإنسان الذى انحط إلى الدرك الأسفل من الحيوانية المفترسة، الحيوانية التى انطوت على أقبح صفات الغدر والخيانة واللؤم والفساد، والمكر والخديعة حتى أن كلمة يهودى تكوّن لها على طول تاريخهم الأسود مدلول لغوى خاص يشير إلى التعصب الأعمى والحقد الأسود والجشع والطمع وما إلى ذلك من الصفات التى تبرأ منها إنسانية الإنسان وتنفر من ذكرها شرائع الأديان.

وأنى لأذكر قبل كتابة هذا المقال أنى رجعت إلى بعض كتب التاريخ لتنير لى طريق الكتابة فى تاريخ بنى إسرائيل فماذا وجدت؟ وجدت تاريخا يفيض بالأحداث التى تهز المشاعر ألما وحزنا، ذلك لأنهم عاشوا فى دنيا الضلالة يتنكرون للحق، ويدافعون عن الباطل ويعبثون بالقيم، ويجعلون من دم أنبيائهم ومعلميهم شرابا تستسيغه حلوقهم، ويروى ظمأهم، وينقع غلتهم، ولا عجب فقد مرنوا على الفساد، ودربوا على المكر، ودرجوا فى أعشاش الخيانة والغدر، والمؤامرة والدسيسة ومن هنا حلت عليهم اللعنة، وضربت عليهم الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة.

وإليك أيها القارىء صورا من تاريخ بنى إسرائيل تعددت أشكالها، وتحددت ملامحها تضع فى يدك الدليل تلو الدليل على أن هذه الجماعة من الناس نشاز فى تاريخ الإنسانية.

(*) نشر فى مجلة منبر الإسلام ـ أكتوبر سنة ١٩٦٧ ـ القاهرة.

١ ـ ذهب موسى عليه السلام ليناجى ربه على طور سيناء واستخلف على قومه أخاه هارون ولما طالت غيبته عنهم دب فى نفوسهم الوهن، وتسرب إلى عقيدتهم الضعف، وإلى قلوبهم العمى، فأغواهم الشيطان، وأشار اليهم السامرى بأن موسى ليس راجعا إليهم، واتخذ من الحلى والذهب عجلا جسدا له خوار وقال هلموا هذا إلهكم الجدير بالعبادة، لا إله موسى الذى لا ترونه، وصدقت عقولهم المريضة وقلوبهم الخاوية وأفكارهم المظلمة ألوهية هذا العجل الذهبى فعبدوه، ونسوا إله موسى.

وهنا تقطعت نفس هارون حسرة، فقال لهم فى ألم ممض ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾(١).

ولما رجع موسى إلى قومه رأى هذه الصورة المخزية التى أصبح عليها قومه فثارت نفسه وتملكه الغضب، وأخذ برأس أخيه يجره اليه، ولكن ماذا يفعل هارون وقد مرن القوم على اباحة الدماء، وإزهاق النفوس، وقتل الأرواح فى جرأة عجيبة واستهتار شديد.؟ فرد هارون ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾(٢).

أليست هذه القصة التى سجلها القرآن الكريم دليلا ملموسا وحجة ساطعة على أن بنى إسرائيل تجردوا من العقل المشرق، والفكر الملهم، والقلب الواعى، ألا يدل تسجيل هذه القصة على أن بنى إسرائيل منذ فجر التاريخ يعيشون فى ظلام الخطيئة، ويحيون فى دنيا الفساد جاعلين عقولهم وراء ظهورهم وأفكارهم تحت أقدامهم، وقلوبهم وراء شهوتهم.

٢ ـ وتمتدح إسرائيل نفسها بالشجاعة والقوة والجرأة والإقدام، وهى مخلب الاستعمار الذى يدفعها إلى هذه الشجاعة دفعا لتحقيق أغراضه مع إيمانه بأن إسرائيل وحدها شىء تافه لا يقام له وزن فليس لها شجاعة النفس ولا جرأة القلب، ليس لها رصيد ذاتى تفخر به، وتستند عليه، وإنى لأضع بين يدى إسرائيل موقفين، موقف ملؤه الخزى والعار، وموقف ملوه الكرامة والشرف، أما موقف الخزى والعار فهو موقفهم من نبيهم موسى عليه السلام حينما طلب منهم أن يقاتلوا الجبارين والكنعانيين ليعيشوا أعزاء فماذا فعلوا؟ رضوا بالذلة، وأحبوا المسكنة، وكرهوا القتال، ومالوا إلى الاستسلام وقالوا لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(٣).

وأما موقف الكرامة والشرف فهو موقف أصحاب محمد عليه السلام حينما تألب الشرك

(١) طه/ ٩٠ ـ ٩١. (٢) الأعراف/ ١٥٠. (٣) المائدة/ ٢٤.

وتحالفت قوى الشر والطغيان لمحاربته، والقضاء على دعوته وخرجت مكة بفلذات أكبادها إلى بدر لتقضى على المدينة التى استقر بها النبى وصحبه، وكان موقفا خطيراً لأن المعركة غير متكافئة، فالمسلمون قلة، والمشركون كثرة، والمسلمون ليس لهم من أسلحة الدفاع الا القليل على حين كان المشركون متسربلين بالأسلحة الفتاكة والسيوف البتارة، والدروع الحصينة. فى هذه اللحظة الحاسمة فى تاريخ الإسلام المشرق، وقف محمد عليه السلام بين جنوده لا ليحثهم على القتال، ولا ليدفعهم إلى المعركة دفعا ولكن ليعلم صدق إيمانهم، ودرجة عزيمتهم، ومدى استعدادهم لهذه المعركة المصيرية، وسرعان ما تقدم المقداد بن عمرو ووقف بين يدى رسول الله ﷺ قائلا: يا رسول الله، امض لما أمرك الله فنحن معك، ولا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون»، ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد.

يا بنى إسرائيل هذا هو موقفنا وموقفكم وتاريخنا وتاريخكم. موقفنا مشرف وموقفكم مخجل، وتاريخكم ملوث بالضعف والذل وتاريخنا متوج بالشجاعة والقوة. تاريخكم يحكم عليكم بأنكم جبناء، جبناء العقول، فتعبدون العجل، وجبناء النفوس فتتخلفون عن نبيكم حينما يطلب منكم قتال أعدائكم، وتاريخنا يحكم لنا بأننا شجعان لا نبالى بأن نخوض غمرات الحروب فى سبيل إعلاء كلمة الحق، وفى سبيل أن نعيش أعزاء كرماء، لا نتخلف عن قيادتنا حتى لو أمرتنا أن نخوض البحر لخضناه، يا بنى إسرائيل قارنوا بين تاريخنا وتاريخكم.

٣ـ وموقف بنى إسرائيل من أنبيائهم موقف يجلله الخزى والعار، والقذارة واللؤم لا يستجيبون لموعظة، ولا ينقادون لهداية، لأن طبيعتهم الشريرة تسيطر على عقولهم وتقودهم إلى الهاوية، ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾(١).

فهذا هو (أرميا) لقد كان نبيا من أنبيائهم آلمه أن يكون قومه على هذا المستوى الوضيع من الشر والخديعة، والفساد والانحلال، فأراد أن يقدم لهم الموعظة ويقص عليهم عبر الزمن، وأحداث الماضى ليهتدوا بها فى حاضرهم، ويسيروا على ضوئها نحو مستقبلهم، فقال لهم فيما قال: يا قوم: إن (سنحاريب) جاء اليكم من (بابل) ليسوقكم كالقطعان ويذبحكم

(١) البقرة/ ٧.

كالخراف فوقف نبيكم (شعيا) حينما ضعفت عزيمتكم عن لقائه وجبنت نفوسكم عن محاربته وقف نبيكم (شعيا) فى ذلة وخضوع داعيا ربه أن يزيح عنكم هذا البلاء ويحفظكم من هذا الطاغوت، ويصونكم من استبداد هذا القائد، فاستجاب الله دعاءه فهلك جنده، ورجع عنكم ذليلا خائبا، فماذا فعلتم (بأشعيا) إنكم سجنتموه وذبحتموه كما تذبح الشاة. لم ينته أرميا.. من موعظته حتى قاموا إليه فاعتقلوه وقيدوه، ثم قتلوه.

ومالى أذهب بعيدا فقد وصل اللؤم اليهودى إلى غايته فى حادثة تجعل الولدان شيبا، فمن أجل امرأة جميلة قتل نبى كريم، قتل يحيى بن زكريا، قتل الطاهر من أجل امرأة عاهرة يا بنى إسرائيل قاتلكم الله لقد فضحتم التاريخ وفضحتم معه إنسانية الإنسان، يحدثنا التاريخ أن (هيرودوس) حاكم بنى إسرائيل قد أحب (هيروديا) بنت أخيه وكانت فتاة جميلة سلبت لبه، وأطارت عقله فجعلته ينسى علاقة القربى التى تربطه بها وأراد أن يتزوجها وكان يحيى عليه السلام قد أوتى الحكم صبيا فأعلن أن ذلك زواج باطل لا تقره شريعة التوراة، ولا يرضى به الله.

وفى خلوة من خلوات هذه العشيقة الفاجرة مع عشيقها طلبت منه فى وقاحة أنها لا تعطيه قلبها أو تمنحه حبها، أو تبلغه ما يريد الا إذا أتى اليها برأس يحيا بن زكريا عليه السلام وابتسم هذا الحاكم الإسرائيلى الخليع قائلاً إن ذلك مطلب يسير. وما هى الا لحظات حتى كانت رأس يحيى بن زكريا بين يديها.

لقد بلغت الاستهانة بأنبياء الله إلى هذا الحد!

يا بنى إسرائيل. نبى يقتل من أجل شهوة رخيصة، حقا لقد حلت عليكم اللعنة، ونزل عليكم غضب الله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(١).

ولم يسلم نبينا محمد عليه السلام من كيدهم ومؤامراتهم، فقد ذهب إليهم فى حيِّهم بالمدينة وكان بينه وبينهم معاهدة جوار، ذهب إليهم ليطلب منهم دية قتيلين من بنى عامر قتلهما بعض أصحابه خطأ، وذلك حينما عز على النبى عليه السلام أن يجد المال الذى يقوم بديتهما، وعلى الرغم من استقبال اليهود الحار للنبى عيه السلام، وإظهارهم الرغبة فى جمع المال الذى يستطيع به أداء دية القتيلين فقد انفضوا من حوله ليوهموه أنهم قاموا من أجل

(١) آل عمران/ ١١٢.

تحقيق رغبته فى جمع ما يحتاج إليه من مال. وسولت لهم نفوسهم القذرة وقلوبهم المريضة أن الفرصة قد سنحت لقتله والخلاص منه ومن دعوته، وانطلق من يهود بنى النضير عمرو بن جحاش ومعه صخرة حيث يجلس رسول الله ﷺ ليقذف بها رسول الله عليه السلام من أعلى الجدار الذى يجلس تحته فى ضربة قاضية وهم أن يفعل ذلك وتلفت إلى حيث كان يجلس رسول الله عليه السلام. وإذا به يفاجأ بأنه ترك المكان وانصرف فقد أعلمه الله بخبث نيتهم، ومكنون غدرهم.

وصمم عليه السلام على أن يجلوَ بنو النضير من المدينة، لأنهم خانوا العهد، وخفروا الذمة، وحاولوا الغدر برسول الله عليه السلام، ولما رأوا جيش رسول الله عليه السلام يحيطهم فروا هاربين وجلوا عن بيوتهم وعقارهم وأرضهم لأنهم نكثوا العهد وخانوا الجوار ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾(١).

وبعد فهذه قصة بنى إسرائيل عرضتها لك أيها القارىء ـ من خلال التاريخ على مسرح الأحداث، قصة مسلسلة فى تاريخ الإجرام والغدر، فإن حاول بنو إسرائيل اليوم أن يعتدوا على العرب، ويدنسوا بأقدامهم القذرة بيت المقدس فإنّ ذلك لن يطول، فقد أعلن العرب أن المعركة مستمرة رغم مؤامرات أمريكا، وإن تاريخ الأمة العربية المشرف قد فتح صفحة الجهاد ليخط فيها أبناء العروبة آيات البطولة والتضحية من أجل الله، ومن أجل الدين، ومن أجل الوطن، ومن أجل القيم، ومن أجل الحق والعدل.

يا بنى إسرائيل، لقد آمنا بقضيتنا وصممنا على أن نعيش أعزاء كرماء مهما أيدك الاستعمار، وحالفتك قوى البغى والشر فإننا أبناء العروبة، أبناء من فتحوا الدنيا وقهروا المماليك، وحطموا عروش الأكاسرة والقياصرة.

يا إسرائيل ان يوم القضاء عليك لقريب «ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا».

(١) الفتح/ ١٠.

٤ ـ بين العقل والوحى فى الإسلام (*)

الإسلام دين عام شامل جاء لإصلاح البشرية، ونشر القيم الفاضلة، والمثل العليا فى أرجاء الدنيا، وفى كل زمان ومكان، لأنه الدين الخالد، «ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه».

هذا الدين العام الشامل قوامه دعامتان: العقل والوحى.

أما العقل فقد أحله الله تعالى منزلة سامية، لأنه الوعاء الذى يصون العقيدة ويحفظها، ولأنه الدرع الذى يحميها من سهام الأعداء وطعنات الجهلة والحاقدين.

والعقل هو سلاح الشريعة الذى تدافع به عن رسالتها بحيث تكون مصونة من جموح الهوى، وغرائز الشهوة، ووساوس الشيطان.

وأما الوحى فهو النور الذى يساعد العقل على أن يسير فى دروب الحياة ثابت الخطا. رابط الجأش. ذلك لأن هذا العقل قد تؤثر فيه البيئة فينحرف عن الصواب ويميل عن الحق. ومن ثم يتحول إلى مارد جبار، يدمر ولا يبنى، يهدم ولا يصلح، يشقى ولا يسعد. ولما كان شأنه كذلك ربطه الله تعالى بالوحى على أيدى رسل كرام يعيشون على هذه الأرض يأكلون الطعام، ويمشون فى الأسواق. وسأتناول الفكر الإسلامى فى ضوء هاتين الدعامتين.

مكانة العقل فى الإسلام:

العقل من صنع الله تعالى الذى أتقن كل شىء، وسعادة الإنسان لا تتحقق إلا فى استخدام هذا العقل فى ضوء وظيفته التى خلق من أجلها.

والعقل هو الحياة، وفقده هو الموت: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾(١).

والعقل منطلق عظيم للتحرر من سلطان التقاليد التى لا تقوم على إدراك سليم ووعى كامل. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(٢).

(*) نشر فى مجلة الوعى الإسلامى ـ فبراير سنة ١٩٧٤ ـ الكويت.

(١) الأنعام/ ١٢٢. (٢) البقرة/ ١٧٠.

والذين لا يستعملون عقولهم لينقادوا إلى الحق هم فى الدرك الأسفل من الحيوانية. ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾(١).

هذا العقل الذى يقوم بهذه الوظيفة الكبرى لم يولد فى الإنسان كامل النضج تام التطور، لأن هذا مخالف لطبائع الأشياء، فكل مولود على ظهر هذه الأرض أيا كان إنسانا أوحيوانًا أو نباتا يولد صغيرا، ثم ينمو ويتطورحينا بعد حين.

ومن أجل ذلك أسقط الإسلام التكاليف الشرعية عن الصبى حتى يبلغ سن الرشد، عندها يكون العقل وصل إلى المرحلة التى يستطيع أن يدرك بها حقائق الأشياء وبذلك يكون فى موضع المسئولية.

ولم يترك الإسلام العقل فى هذه المرحلة يسير من غير توجيه، لأن الدروب متعددة والمسالك متشعبة بل رسم له منهجا يتربى من خلاله على أصول التفكير السليم.

ومن عناصر هذا المنهج توجيهه إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض لأنه كلما زاد معرفة بأسرار الكون زاد معرفة بخالقه ومدبره وصانعه.

وقد كثرت فى القرآن الكريم الآيات التى تدعو الإنسان إلى التفكير فى هذا الكون بما حوى من مظاهر مختلفة لينطلق العقل إلى آفاق رحبة فسيحة، فيقر بصانع هذا الكون ومبدعه من أجل أن تستقر العقيدة، وتضرب جذورها فى القلب وتمتزج باللحم والدم، والحس والشعور، والعاطفة والانفعال.

وجهه إلى ذلك الكون ليلتمس العبرة بنفسه، ويحس بالحقيقة عن طريق إدراكه: «وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارًا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لأيات لقوم يتفكرون».

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٢).

ولم يكتف القران الكريم بذلك، بل وجهه إلى إدراك الحكمة من صنع هذه المخلوقات ليعرف الإنسان مدى مكانته عند الله فيقول: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾(٣).

(١) الأنفال/ ٢٢. (٢) الرعد/ ٣، ٤.
(٣) الغاشية/ ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١.

وجهه أن ينظر إلى قوام حياته، إلى الطعام الذى قطع مراحل متعدّدة ليصل إلى فمه، إلى معدته، فيمده بالحياة والحركة، والنمو والتطور، ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾(١).

ثم وجه عقله بعد ذلك إلى قصة الإبداع الكبرى، قصة خلق السموات والأرض، قصة انبثاق الحياة من العدم: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(٢).

وفى آية أخرى يقول عز وجل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾(٣).

وقد أعجبتنى كلمة فى هذا المقام لعالم من علماء الذرة يقول فيها: لست فى معملى أعنى بإثبات حقيقة الحياة بعد الموت، ولكنى أصادف كل يوم قوى عاقلة تجعلنى أحس إزاءها أحيانا بأنه يجب على أن أركع احتراماً لها».

ولم يقف القرآن الكريم فى تربية العقل عند هذا الحد، بل انتقل إلى مرحلة أخرى من مراحل التربية، وهى توجيهه إلى الله ذاته، بين له بالأدلة الفطرية والعقلية أن السموات والأرض لا يستقيم أمرهما إلا بإله واحد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(٤).

وهذا الإله الواحد قريب يسمع نداء من ناداه، ودعاء من دعاه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى﴾(٥).

وحينما تستبد أحداث الحياة بالإنسان، وتضيق منافذ الدنيا فى نظره يحس العقل الإنسانى بأنه قاصر عاجز، لا يستطيع أن يدفع عوادى الزمن، ويرد نكبات الحياة.

ومن هنا رباه الإسلام على أن يركن فى هذه الحالة إلى قوة ترد إليه الاطمئنان، وتبعث فى نفسه الثقة، وهى قوة الإله الذى بيده وحده مصائر الأمور. ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾(٦). ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٧).

---

(١) عبس ٢٤ ـ ٣٢. (٢) الأنبياء/ ٣٠. (٣) يس/ ٣٣.
(٤) الأنبياء/ ٢٢. (٥) البقرة/ ١٨٦. (٦) النمل ٦٢. (٧) غافر/ ٦٠.

وينتقل الإسلام فى مجال تربية العقل إلى مرحلة أعمق من هذه المراحل جميعا مرحلة مراقبة الله فى السر والعلن، فى البيت والعمل، وفى كل شأن من شئون الحياة، يتربى العقل فى هذه المرحلة على يقظة الضمير التى تثير فيه معنى الإحساس بأن الله معه، يراه ويسمعه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١) ومن هنا يتولد فى نفسه معنى الحياة ممزوجا بمعنى الاطمئنان، والشعور بقوة الله تعالى التى تحل كل مشكلات حياته صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

وفى مقام آخر يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٣).

وقصة موسى مع فرعون مثال حيّ لهذا الإحساس بمعيّة الله تعالى، ومصاحبته حيث يمد هذا الإحساس النفس البشرية بطاقات أخرى لا تحد، لأنها من قوة الله الذى لا يعجزه شىء وحينئذ يسير الإنسان إلى هدفه لا يحفل بطغيان، ولا يعبأ باستبداد، ولا يهتم بما يلقى فى طريقه من صخور وأشواك: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾(٤).

ولما خرج موسى وقومه فارين من وجه الظلم والطغيان، وإذا بفرعون يتبعهم بحنوده وحشوده، ولما رآهم قوم موسى اعتقدوا أنّ الهلاك مصيرهم، وأن العذاب نهايتهم، ولكن موسى كان يشعر بهذه المعية معية الله وصحبته: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾(٥).

---

(١) الحديد/ ٤. (٢) يونس/ ٦١. (٣) المجادلة/ ٧.
(٤) طه ٤٢ ـ ٤٦. (٥) الشعراء/ ٦١ ـ ٦٦.

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ومعه صديقه أبو بكر، واختبآ فى الغار تبعهما المشركون، ووقفوا على باب الغار، وهنا تتجلى المعية بأوضح معانيها، وأعمق صورها حينما يقول النبى عيه السلام لصاحبه أبى بكر: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما». ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾(١).

على أن هذا العقل الذى أتيح له أن يتربى فى هذه المجالات جميعا، والذى أتيح له من فرص التفكير ما يستطيع به أن يعى الدرس فى يقظة وإدراك وقف عند مرحلة محدودة من التفكير لا يستطيع أن يتجاوزها، لأنها فوق استعداده وفوق طاقته، وفوق إدركه. إنه تربى أن يفكر فى كل ما تقع عليه العين أو يأتى إليه عن طريق الوسائل الحسية والمدركات، ولكن ما وراء ذلك، التفكير فيه تطاول على الحقيقة، لأن العقل المحدود لا يستطيع أن يلمس هذه المرحلة أو يطرق بابها ألا وهى مرحلة التفكير فى ذات الله تعالى أوحقيقة هذه الذات، ومن أجل ذلك نهى الإسلام العقل أن يفكر فى ذات الله، فعن ابن عباس رضى الله عنهما: «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله، وكل ما ورد فى بالك، فالله بخلاف ذلك».

ان التفكير فى الله جنون لا يستقيم مع المنهج السليم، وكيف يفكر المحدود فى اللامحدود، والفانى فى الباقى، والعاجز فى القوى، والميت فى الحى؟.

إن العقل يعجز أن يحيط بإدراك هذه المخلوقات العظيمة التى تملأ هذا الكون من نجوم وشموس، وأقمار وكواكب، ومجرات وراءها مجرات. فكيف يتطاول إذاً إلى صانع هذه المخلوقات ليدرك ذاته، وهو «لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير».

إن الإسلام قد وضع يد الإنسان على أزرار الكون كما عرضت سابقا ليلمس بعقله العبرة والعظة من وراء هذه المظاهر الكونية، ولكن عقل الإنسان لو تجاوز حدوده لأدى ذلك إلى التفكير المضطرب، إلى الانحدار، إلى الهاوية إلى الكفر والإلحاد، وهذا هو الهلاك الذى يعنيه حديث ابن عباس.

وقد ربى الإسلام العقل على هذا المعنى ففصل فى كثير من القضايا بين الأسباب والمسببات، والمقدمات والنتائج، والعلة والمعلول، وهى مجالات لا يستطيع العقل إلا أن يعيش فى مجالها، فمنها يستمد تفكيره، وعليها يبنى نتائجه.

---

(١) التوبة/ ٤٠.

وكانت تربية الإسلام للعقل فى هذا المجال إعلاماً له بأن الله الذى جعل لكل شىء سببا قدرته تعالى لا تحد، يستطيع أن يفصل بين المقدمة والنتيجة، ويقطع العلاقة بين السبب والمسبب، والعلة والمعلول. ولا أدل على ذلك من قصة زكريا عليه السلام مع السيدة مريم أم المسيح عليه السلام، إنها قصة مليئة باللفتات العجيبة فمريم يأتيها رزقها رغدا من حيث لا تدرى، ففاكهة الصيف تجدها فى الشتاء، وفاكهة الشتاء تجدها فى الصيف، وليس هناك من يقدم لها هذه الفاكهة. وهنا كان مثار العجب عند زكريا عليه السلام: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

وما لى أذهب بعيدا وزكريا نفسه امرأته عاقر، والعاقر لا تلد وقد بلغ من الكبر عتيا ومن كان كذلك فقدرته على الانجاب غير ممكنة، ولما أراد الله تعالى له أنْ ينجب توارت الأسباب وتلاشت المقدمات أمام القوة التى فى إمكانها أن تقول للشىء كن فيكون. ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾(٢).

وجاءت ولادة عيسى عليه السلام درسا ملهما لهذا العقل ليقف على حقائق القدرة الإلهية، إنها ولادة أحدثت دويا هائلا فى بنى إسرائيل، أقاموا الدنيا وأقعدوها لأن عقولهم عجزت عن إدراك حقيقة هذه القدرة العظيمة التى فى إطارها توجد الأشياء.. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٣).

ومن هنا يتلقى العقل أول درس فى الإيمان بالغيب، وبهذا الإيمان يستسلم العقل إلى ما وراء هذا الكون فيؤمن بالجنة والنار، والبعث والنشور، والحساب والعقاب والملائكة والرسل. وكل ما ورد عن طريق رسل الله سلام الله عليهم مما لا يخضع لتجربة، ولا يوضع تحت مجهر، مما لا يدركه حس، أو يتناوله بصر ولكنه انقياد يدل على الطاعة، واقرار يدل على الإيمان. وبذلك ننتقل إلى الدعامة الأخرى التى يقوم عليها الفكر الإسلامى، وهى دعامة الوحي.

---

(١) آل عمران/ ٣٧. (٢) آل عمران/ ٤٠. (٣) آل عمران/ ٥٩.

الوحى:

المدلولات التى تشير اليها كلمة: «الوحى» متعدّدة:

فالوحى إلهام لا ينفرد به الإنسان فقد تشاركه بعض المخلوقات فى مجال الالهام دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(١).

وفى جانب الإنسان قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾(٢).

والوحي إشارة: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾(٣) وقد تكون وسوسة الشياطين وحيا: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾(٤)..

والقرآن الكريم وحى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(٥)..

والذى يعنينى فى هذا المقام من هذه المدلولات المختلفة لكلمة الوحى هو الوحى فى اصطلاح الشرع. ومعناه: الرسالات السماوية التى يكلف بها نبى مختار من عباد الله ليعمل بها أو يبلغها مع عمله إلى القوم الذين أرسل اليهم.

والوحى بهذا المدلول أنواعه متعدّدة فقد يكون عبارة عن إلقاء المعنى فى النفس والقلب، وقد يكون كلاماً من وراء حجاب.

ومن أنواعه أن ينزل ملك الوحى وهو وجبريل عليه السلام إلى الأنبياء ليلقى عليهم رسالات السماء وتعاليمها، وقد يأتى على صور مختلفة.. لا نستطرد فى ذكرها لأنها تحتاج وحدها إلى بحث طويل.

والذى أريد أن أقوله هنا إن الإسلام تميز عن الأديان التى سبقته بأن معجزته الخالدة قرآن موحى به من الله تعالى، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(٦) أعنى أن القرآن ليس من صنع عقل بشرى، والا لتناولته العقول لتجاريه فى مجال القول، وتنافسه فى مضمار البلاغة، وتتحداه فى مجال القدرة البيانية. وما زال القرآن الكريم إلى اليوم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يحمل عناصر

---

(١) النحل/ ٦٨. (٢) القصص/ ٧. (٣) مريم/ ١١.
(٤) الأنعام/ ١٢١. (٥) النجم/ ٤ (٦) الشعراء/ ١٩٢ ـ ١٩٥.

القوة التى تفرض سلطانها على العقول والقلوب والعواطف والمشاعر، والتى لا تملك القوى البلاغية الا أن تستسلم لها فى انقياد وخضوع.

والقرآن الكريم ثورة جارفة قلبت النظم العقائدية، والسياسية والاجتماعية رأسا على عقب، لأنه كتاب إصلاح للإنسانية التى خربها الظلم، واستبد بها الباطل، وشوهها الانحراف، وهذا الإصلاح نابع من طبيعة القران ذاته، راجعٌ كما يقول الدكتور عبدالله دراز فى كتابه «مدخل إلى القران الكريم»: إلى «ما له من جاذبية خاصة بتوافقه الكامل مع أسلوب الناس الفطرى فى التفكير والشعور، وباستجابته لما تتطلع إليه نفوسهم فى شئون العقيدة والسلوك، وبوضعه الحلول الناجعة للمشكلات الكبرى التى تقلق بالهم. وبمعنى آخر لابد أنه ينطوى على ما يشبع حاجتهم إلى الحق، والخير والجمال بما يجمع من صفات العمل الدينى والأخلاقى والأدبى فى آن واحد»..

ولنا أن نتساءل: هل القرآن الكريم الذى جاء لإصلاح الإنسانية ليقوم بناؤها على أسس ثابتة من الإيمان والعلم، والخلق والعدل، وقف من الأديان التى سبقته موقف الخصم العنيد ليثبت وجوده، ويعزز مكانته؟

الحقيقة أن القرآن الكريم لم يكن كذلك، لأنه أيقظ ضمائر أهل الكتاب بدعوته إلى الوحدة الدينية التى تقوم على أساس أن جميع الأنبياء والرسل أمة واحدة تحت لواء الله تبارك وتعالى، وأن غياب هذه الوحدة باطل يقوم على التعصب والتفرقة. ولا أدل على ذلك من أن موسى عليه السلام يعلن أنه من إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وعيسى عليه السلام يعلن أنه لم يأت الا ليؤيد من قبله الرسل السابقين وشرائعهم، ويؤيد بالبشارة رسالة محمد عليه السلام ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(١).

ومحمد عليه السلام يؤمن كما يؤمن أصحابه، وتؤمن أمته بما أنزل اليهم من ربهم ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾(٢).

وبذلك وضع القرآن الكريم أول لبنة فى بناء الوحدة الدينية بعيدا عن التعصب والهوى، والحقد والأنانية.

ومن هذا المنطلق اتجه التفكير الإسلامى يدعو إلى هذه الوحدة فى منطق قوى واقناع عجيب. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٣).

(١) الصف/ ٦. (٢) البقرة/ ٢٨٥. (٣) آل عمران/ ٦٤.

منطق قوى يثير فى العقل تساؤلات: لم الاختلاف وقد آمن العقل بوحدة هذا الكون التى أبدعها الاله الواحد؟ كل ما فى الأمر أن هذا العقل قد تشل قواه، ويضعف بناؤه، فيركع أمام وثن أو حجر أو يخضع لسلطان كاهن أو راهب، ومن هنا يأخذ طريقه إلى الانحراف فإذا ترك وشأنه، انزوى الحق، وضاع العدل، وظهر الباطل وكثر الفساد، وأظلم الكون.

ومن أجل إيقاظ ضمائر هؤلاء المنحرفين نهانا القرآن الكريم أن نتخذ منهج العنف فى الحوار والمناقشة حينما ندعو أهل الكتاب إلى الإسلام، لأن العنف لا يقابله الا العنف، والإسلام دين فوق مستوى العناد ومستوى الاستبداد الفكرى فقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(١) وقد تعمى العاطفة عيون أتباع الرسل عن الحقيقة فيبالغون فى إضفاء القدسية على أنبيائهم ورسلهم فى تعصب ممقوت ليرتفعوا بها إلى درجة الألوهية كما قالت اليهود عُزَيْرٌ ابن الله، وكما قالت النصارى المسيح ابن الله، ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(٢).

ومن هنا كان القرآن الكريم حريصًا على أن يضع الحقيقة واضحة حول رسول القرآن ليكون الأتباع على بينة من الأمر، وحتى لا يقعوا فيما وقع فيه أتباع الأنبياء من قبل، فأكد القران الكريم بشرية الرسول عليه السلام فى أكثر من موضع ليلفت العقول دائما إلى الحق: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾(٣).

وفي الأعراف: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٤).

وقد حرص النبى عليه السلام نفسه أن يؤكد عبوديته لله. فكان يقول: «اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

ولم يكن القرآن الكريم مجرد تشريعات تشرع، أو قوانين تتلى، أو قيم تعرض فحسب بل كان بجانب ذلك قوة تنفيذية، لا يستطيع المسلم الفكاك منها، لأنها قوة تعمل فى ضميره ذاته، فبعد أن طاف القران الكريم بفكر المسلم فى رحاب الكون دارسا وباحثا، وفى رحاب العقيدة مؤمنا وموقنا حول هذا الفكر إلى قوة تنفيذية، لا يتسرب إليها شك، أو يعتريها ضعف إزاء أوامر القرآن الكريم ونواهيه، فمثلا حينما حرم القرآن الخمر، وكانت الخمر تشرب إذ ذاك لأنه لم ينزل فيها أمر بتحريمها حتى بعد دخول الإسلام، فلما حرمت الخمر

(١) العنكبوت/ ٤٦. (٢) التوبة/ ٣٠. (٣) الأنعام/ ٥٠. (٤) الأعراف/ ١٨٨.

بعد ذلك كان لتحريمها قصة تدل على رفاهة الحس ويقظة الضمير، وسمو النفس. يحدثنا أنس بن مالك فيقول: «بينما أنا أدير الكأس على أبى طلحة، وأبى عبيدة بن الجراح، ومعاذ ابن جبل حتى مالت رؤوسهم من الخمر إذ سمعت مناديا ينادى: ألا ان الخمر قد حرمت قال أنس: فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا، واغتسل بعضنا. وأصاب من طيب أم سليم ثم خرجنا إلى المسجد».

وفى حديث آخر عن أبى بريدة عن أبيه قال: بينما نحن قعود على شراب لنا، ونحن نشرب الخمر إذ قمت حتى آتى رسول الله ﷺ، فأسلم عليه، وقد نزل تحريم الخمر، فجئت أصحابى، فقرأت الآية عليهم إلى قوله: «فهل أنتم منتهون»، قال بعض القوم وشربته فى يده، شرب بعضا وبقى بعض فى الإناء، فأراقوا ما فى كئوسهم، ثم صبوا ما فى أباطيتهم وقالوا: انتهينا ربنا.

مجرد تحريم الخمر تفعل فى نفوسهم هذا الفعل العجيب، فيكسرون الأباطى ويحطمون الكئوس وليس هذا القانون فى حاجة إلى قوة بوليسية تشهر سلاحها فى وجه من يقف دون تنفيذه. نعم كانت هناك قوة بوليسية ولكنها فى داخل النفس لا من خارجها، إنه الضمير المتفتح، إنه القلب الواعى، إنه الإيمان بالله أقوى من كل القوى، وأعظم من أسلحة الدنيا.

وحتى النساء اللاتى تميزن بالجانب العاطفى نجدهن فى مجال الالتزام بأوامر القران الكريم ونواهيه كالرجال على قدم المساواة. فعن صفية بنت شيبة قالت: بينما نحن عند عائشة، قالت: فذكرن نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة: إن لنساء قريش لفضلا وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا لكتاب الله، ولا إيمانا بالتنزيل. لما نزلت «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله، يتلو الرجل على امرأته، وابنته، وأخته وعلى ذى قرابته فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل، فاعتجرت به تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ كأن على رؤوسهن الغربان.

ولعلك أيها القارىء تحس أن الدافع لهذا الالتزام، والسر وراء سرعة التنفيذ إنما يرجع إلى العقيدة والعقيدة حياة وحركة، عاطفة وانفعال، قوة والتزام، ليست العقيدة فلسفة فكرية سلاحها الجدل والمنطق ولكنها قوة ربانية سلاحها الحق والخير.

وتعجبنى فى هذا الموقف كلمة أحد الكتاب حينما يقول: «إن الفارق الأساسى بين العقائد والفلسفات هو أن العقيدة كلمة حية تعمل فى كيان إنسان، ويعمل على تحقيقها إنسان. أما الفلسفة فهى كلمة ميتة مجردة من اللحم والدم، تعيش فى ذهنه، وتبقى باردة هناك».

وحينما يتلاقى العقل والوحى فى الإسلام يتكون الفكر الإسلامى المكتمل لأن العقل يستمد مدركاته كما قلت من الحياة والطبيعة والكون، والوحى يستمد تعاليمه من الله خالق الحياة والطبيعة والكون.

وجوهر الفكر الإسلامى يقوم على العلم يدل على ذلك أن أول آية أنزلت فى القران الكريم: «اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم».

وعلّم ربُّ الإسلام نبيّ الإسلام ألا يقنع بما عنده من المعرفة والعلم بل طلب منه أن يكون شعاره دائما «وقل رب زدنى علما».

وكان النبى عليه السلام بعد نزول هذه الآية يدعو فيقول: اللهم علمنى ما ينفعنى، وانفعنى بما علمتنى، وزدنى علما، والحمد لله على كل حال.

وإذا كانت النبوة لا تورث لأنها هبة سماوية، فهى أكبر من الإرث، ومن صلات اللحم والدم، ومع ذلك فإن الرسول عليه السلام جعل العلماء فى الدرجة التالية للأنبياء فقال: العلماء ورثة الأنبياء.

وليس للعلم غاية ينتهى إليها العقل فإذا ما وصل إليه ألقى السلاح، لأن الرسول عليه السلام يقول: لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

وليس العلم فى الإسلام مقصوراً على التفسير والحديث، والفقه والنحو، واللغة، فهذا جانب فقط، ولكن العلم يشمل جوانب الحياة المختلفة التى تساعد على تقدم البشرية وتطور الإنسان، وتقدم العمران، لأن هذا يدور حول فكرة واحدة هى ربط السماء بالأرض، والدين بالدنيا والحياة بالموت.

لقد أضاء مشعل العلم فى الفكر الإسلامى ظلمات أوروبا، فتكونت حضارتها التى تفرض وجودها على العالم الان، وما خيوط هذه الحضارة الا من نسيج ذلك الفكر العربى المسلم العملاق.

وانى لأدعو أن ننظر فى مسيرتنا الكبرى نحو الحرية والسلام إلى هاتين الدعامتين الوحى والعقل لنصل إلى مرفأ السلام تحت رعاية الرحمن.

٥ ـ من منهج الإسلام فى تربية المجتمع (*)

اهتم الإسلام بالمجتمع اهتماما كبيرا، فوضع له منهجا سليما، ليكون قوىّ البنيان، قوىّ الدعائم، لا تنال من قوته أحداث الحياة، ولا تضعف بناءه أعاصير الزمن، لأنه أقوى من الأحداث، وأعظم من أن تؤثر فيه هذه الأعاصير.

نعم، اهتم الإسلام بالمجتمع، لأن الصراع بين الأفكار المتنافرة، والعقائد المختلفة، والقيم المتضاربة لا تخمد جذوته، ولا تطفىء ناره طوال الحياة، سنة الله فى خلقه، «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك» وحتى لا تختلط القيم، وتتشوّه المعالم وحتى يثبت لهذا المجتمع الإسلامى نوره الذى يهدى، وحقه الذى يرشد، وخيره الذى يقود رسم الإسلام منهجا واضح المعالم لتربية المجتمع فما هو إذن هذا المنهج؟ هذا المنهج يتكون فى نظرى من أسس كثيرة، ومن أهم هذه الأسس:

التربية فى إطار العقيدة.

التربية فى إطار الأسرة.

التربية فى إطار الأخوة.

أما التربية فى إطار العقيدة، فإن الإنسان فى غيبة الرسل لم يستطع بعقله القاصر أن يدرك أسرار هذا الوجود، ومظاهره العديدة المختلفة، فالشمس تشرق، والنجوم تسطع، والليل يظلم، والرياح تدوى، والموت والحياة فى صراع دائم فى مجالات هذا الكون المختلفة.

من يصنع هذه العجائب كلها؟ من يدبرها؟ من ينظمها؟ من يهيمن عليها؟ من يخطط لها؟ أسئلة عديدة لم تستطع العقول القاصرة فى غيبة الرسل أن تجيب عن هذه التساؤلات.

واشتدت بها الحيرة، واستولى عليها العجز، فتصورت أن وراء هذا الكون قوة مدبِّرة تصورها العقل العربى فى شكل وثن أو حجر فعبدها من دون الله.

وتصورها العقل الفارسى ناراً تتأجج وتشتعل فخضع لها من دون الله.

(*) نشر فى مجلة الوعى الإسلامى ـ ابريل سنة ١٩٧٣ ـ الكويت.

وتصورها العقل المصرى القديم فى شكل عجل له خوار، فأحنى رأسه له إجلالا من دون الله.

وشارك العقل الإسرائيلى فى صنع هذه الخرافة حتى مع وجود رسولهم موسى عليه السلام بين ظهرانيهم حيث اتخذوا من حليهم عجلا جسدا له خوار وقالوا: «هذا إلهكم وإله موسى فنسى».

وحينما أشرقت شمس الإسلام بددت غشاوة النفوس، ومحت ظلام العقول وأثارت فيهم التطلع إلى المعرفة الحقة، التطلع إلى خالق هذا الكون ومدبره على أساس الفطرة السليمة التى لاتعرف الخداع، ولا تميل عن الحق «فطرة الله التى فطر الناس عليها».

وفطرة الله تقتضى أن يكون رب هذا الكون هو الإله الواحد الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

ومن صفات هذا الإله الوحدانية: «قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد» وبالوحدانية ينتظم الكون، وتسير سفينة الحياة، وصدق الله العظيم: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١).

وبالوحدانية نعيش فى مأمن من الكوارث المدمّرة، فقد تخر علينا السماء من فوقنا وتتفجر الأرض من تحتنا إذا كان مع الإله الواحد آلهة أو شركاء وصدق الله العظيم: «ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض»(٢).

أما والسماء التى فوقنا مازالت هى السماء، رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض التى تحتنا هى الأرض التى تمدنا بالحياة أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها متاعا لنا ولأنعامنا فإن ذلك لن يكون إلا فى ظلال الإله الواحد الذى خلق سبع سموات طباقا «ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير»(٣).

ومن صفات هذا الإله الدوام الأبدى: الدوام الذى لا يحيط به مكان ولا يحده زمن، وفى ظلال هذا الدوام الأبدى لا يغيب سلطانه، ولا تتوقف إرادته بيده مصائر الأمور.

وفى مجال هذا الدوام الأبدى عرض علينا إبراهيم عليه السلام درسا فى الإيمان بهذا الإله الدائم.

---

(١) الأنبياء/ ٢٢. (٢) المؤمنون/ ٩١. (٣) الملك/ ٣ ـ ٤.

فقد رأى إبراهيم عليه السلام بفطرته الصافية أن من أكبر ظواهر الكون التى لا تغمض عنها العين النهار بشمسه والليل بنجومه، فقد رأى الكوكب يشرق ويضىء، قال هذا ربى، ولكنه حينما ولى وغاب كفر بهذا الرب، لأن الرب لا يغيب، ثم تدرج فى تفكير منهجى إلى القمر، رآه بازغا يبدد ظلمات الليل، فقال: هذا ربى، ولكن القمر اختفت معالمه وانطفأ نوره فكفر به لأن الرب لا يغرب ولا يغيب، ثم تدرج بعد ذلك إلى الشمس فرآها قوة هائلة، أضخم قوة فى هذا الوجود، فقال: هذا ربى، هذا أكبر، وانتظر يراقب هذا الرب الأكبر وإذا به يموت ويحتضر ثم يولى الأدبار، ماذا بقى بعد ذلك من ظواهر الكون أكبر من هذه الظواهر؟ حينئذ اتجه إيمانه إلى الله الذى خلق الشمس والقمر فقال بعد أن نفذت حجة معانديه: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ .. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

ومن صفات هذا الإله أنه عليم، نفذ علمه إلى كل شىء فى هذا الكون إلى الورقة الجافة الساقطة، إلى الحبة فى ظلمات الأرض، إلى الصدفة فى قاع البحر، وصدق الله العظيم: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

وليس هذا الإله فى حاجة إلى فلسفة تدل عليه، أو علم معقَّد يشير إليه،

لأن طريق معرفته فطرى تحسه النفس، ويشعر به القلب، وينقاد إليه العقل، فى غير حاجة إلى تزاحم الأدلة، أو تعدد البراهين.

سأل رجل جعفر الصادق عن الله فسأله جعفر: ألم تركب البحر؟ قال: بلى.. فقال جعفر: هل هاجت بكم الريح عاصفة؟ قال: نعم، فقال جعفر: فهل خطر ببالك، أو انقدح فى نفسك أن هناك من يستطيع أن ينقذك إن شاء؟ قال: نعم. قال جعفر: فذلك هو الله.

وصدق الله العظيم: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٣).

ومن أجل تثبيت هذه العقيدة فى القلوب دعا الإسلام أصحاب العقول إلى التفكير فى

---

(١) الأنعام/ ٧٩. (٢) الأنعام/ ٥٩. (٣) يونس/ ٢٢.

ظواهر هذا الكون لتتفتح عقولهم إلى المعرفة، وقلوبهم إلى الحق، لأنّ الحجة واضحة، والمعالم بينة، وكل ما فى الكون صَغُر أو كبر، دقّ أو جلّ يأخذ بيدك إلى الحقيقة التى لا تقبل المراء والجدل، بل تدعوك إلى الإيمان والتسليم.

وفى القرآن الكريم آيات عديدة لا يتسع هذا البحث لذكرها، ولكنها تشير إلى التفكير فى خلق السموات والأرض، والتدبر فى اختلاف الليل والنهار، والنظر فى الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾(١).

كل ذلك من أجل أن تنبت العقيدة الصافية فى القلب، وتضرب شعابها فى النفس، وبذلك يكون الإسلام قد وضع الأساس الأول للتربية فى ظل العقيدة.

والتربية فى إطار العقيدة تتطلب من المسلم أن تكون وجهته لله وحده فهو الذى يحميه ويرعاه، ولا يقدر أحد غيره أن يجلب له نفعا أو يمنع عنه ضرا، وشعار المسلم فى هذا قوله عليه السلام:

«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

وفى مجال التربية بالعقيدة: يقترب المسلم من ربه ليسمعه صوته فى تضرع وتذلل ليرد عنه العوادى، وينقذه مما حلّ به من أخطار.

وشعار المسلم فى هذا: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(٢). وبذلك يتحرر المسلم من وساطة الوسطاء، وشفاعة الشفعاء.

والتربية فى إطار العقيدة: ترشد المسلم إلى أن الله معه، لا تغيب عنه صغيرة ولا كبيرة، يطلع على السرائر، لا تخفى عيه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.. ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾(٣) وبذلك يتحرر المسلم من نفسه، فلا تدفعه إلى الإسرار بغدر، أو ظلم، لأن الله يستوى فى علمه السر والعلن، والخفاء والجهر.

ومن هنا يعلم المسلم كيف يحوّل الشرّ خيراً، والبغض حبّاً، والعصيان طاعة. وصدق الله العظيم: ﴿ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ

(١) البقرة/ ١٦٤. (٢) البقرة/ ١٨٦. (٣) الرعد/ ١٠.

سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

هذا هو الخط العريض فى تربية المسلم على العقيدة التى تصنع منه إنسانا ساميا فى إنسانيته، مؤمنا كاملا فى إيمانه.

التربية فى إطار الأسرة

فإذا ما انتقلنا إلى النقطة الثانية أو الأساس الثانى للتربية فى إطار الأسرة نجد أننا قدمنا للخلية الأولى فى البناء الاجتماعى وهى الأسرة نموذجا حياً يستطيع أن يؤدى دوره الاجتماعى فى صلابة وإيمان، ذلك النموذج الحى متمثل فى المؤمن صاحب العقيدة.

والأسرة فى نظرى هى الخلية الأولى للمجتمع على أساسها يقوم وعلى دعائمها يقوى، وبسببها يتطور.

لهذا، فإن النظرية التى تقول: إن الفرد أساس المجتمع أو الخلية الأولى للمجتمع تحتاج إلى نقاش، فالفرد وحده لا يزال ناقص التكوين الاجتماعى، لأنه يعيش فى دائرة ضيقة جدا بعيدا عن الحقل الاجتماعى إلى أن يتم وجوده، ويكمل تكوينه بالزواج، وبالزواج تتكون الأسرة الصغيرة التى تعتبر بحق اللبنة الأولى فى بناء المجتمع.

وكيف يستطيع الفرد وحده أن يكون هذه الخلية، وهو بعيد عن الحركة والتفاعل وهما صفتان من أبرز الصفات التى تميز الأسرة.

وليس من عجب أن نجد فى هذه العبارة المأثورة: «من تزوج فقد كمل نصف دينه» إشارة واضحة إلى المعنى الذى أقصد إليه، وهو أن الفرد وحده نصف خلية بالنسبة للمجتمع، لأن الخلية الكاملة لا تتكون إلا بالزواج. وقد تمتد هذه الأسرة الصغيرة وتنمو فتشمل الأقرباء بدرجاتهم المختلفة فى القرابة، ومن هذه الأسرة يتكون المجتمع الكبير.

وما أعظم التعبير القرآنى المعجز فى بيانه الخلاب حينما يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(٢).

إنه تعبير قوى يحمل فى طياته الخطوط الأولى للتكوين الأسرى. والنفس الواحدة تشتق منها نفس أخرى ليتعاون النفسان فى البناء المشترك لتكوين خلية اجتماعية صالحة، لأن تكون منطلقاً عظيما لبناء مجتمع عظيم.

والإسلام لا يقف عند معنى التكوين الأسرى فحسب، بل إنه يؤكد هذا المعنى فى إطارات مختلفة.

(١) المجادلة/ ٧. (٢) النساء/ ١.

فمرة يبين لنا أن تكوين الأسرة نعمة كبرى فى مجالها تنمو الفضيلة وفى مجالها تسود العفة، وفى مجالها تسعد النفس، وتقر العين.

فيقول عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾(١). وقد هزنى التعبير القرآنى: "«جعل لكم من أنفسكم أزواجاً» لم يقل خلق لكم أزواجا. لم يقل خلق لكم من مادة أجسامكم نساء، ولكنه قال: من أنفسكم ليؤكد لك أن الزواج تمازج روح بروح ونفس بنفس، وقلب بقلب، وذلك ليسد الطريق على الانفصام النفسى بين الزوج وزوجه. فان هذه الانفصام يؤدى إلى كوارث عديدة، تحطم البناء، وتضيع المجتمع.

ومرة أخرى نجد القرآن الكريم يؤكد معنى الحب، والتمازيج النفسى بين الزوجين فى صراحة ووضوح، فيقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(٢).

ومرة ثالثة يعلمنا القرآن الكريم أن نسأل الله تعالى هذه النعمة العظمى بأن يجعل الزوجة وذريتها مثالاً حيّا لإسعاد النفس، وراحة القلب من ناحية، ومثالا حيا للتقوى والإيمان ليكون مثالا يحتذى، ومنهجا يقتدى به من ناحية أخرى.

فيقول: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(٣).

بعد هذا العرض الموجز لمكانه الأسرة، وموقعها بالنسبة للمجتمع، لنا أن نتساءل عن الأسس التربوية التى رسمها الإسلام ليقوم عليها بناء الأسرة.

من هذه الأسس:

الحث على الزواج، فالإسلام ينهى عن العزوبة، لأنها تحلل من المسئولية وهروب من الواجب، وحرب على المجتمع.

ولا أدل على ذلك من هذا النداء الحار الموجه إلى الشباب من رسول الله ﷺ حيث يقول: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج». والأمر فى هذا القول النبوى يشعر الشباب بهذا الالتزام ما دامت القدرة على الزواج متوافرة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من النصح والإرشاد، بل تجاوزه إلى التهديد والزجر حيث يقول عليه السلام: النكاح سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى.

(١) النحل/ ٧٢. (٢) الروم/ ٢١. (٣) الفرقان/ ٧٤.

ومعنى هذا أن هؤلاء الذين يملكون القدرة على الإسهام فى بناء المجتمع بطريق الزواج ثم ضنوا بهذه القدرة عليه، أو صرفوها فى اتجاه مضاد، فهولاء مخربون للبناء، محطمون للأسس، ومن كان كذلك فإنّ انتسابه إلى الإسلام انتساب شكلى، انتساب مجرد من الروح والإيمان، والعاطفة أو بعبارة أدق: من أعرض عن سنة رسول الله فانتسابه إلى الإسلام تمويه وتزييف، وخداع وتضليل.

ومن هذه الأسس:

اختيار الزوجة: ذلك لأن سلامة الأسرة، والحفاظ على كيانها يرشد إلى الزوجة التى تستطيع أن تقوم برسالتها فى الأسرة خير قيام.

وحصر الإسلام اختيار الزوجة فى مجال واحد من مجالات الزواج العديدة وهو مجال الدين، والدين وحده.

يتضح لنا ذلك من قوله عليه السلام: «تنكح المرأة لأربع: لما لها، وجمالها، وحسبها، ودينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك».

والتعبير بالظفر يشير إلى أنَّ ذات الدين صيد ثمين، يبحث عنه، فإذا ما ظفر به المسلم، ثم فرط فيه، أو تركه ليضيع منه، فقد أضاع سر السعادة، وطمأنينة النفس، وراحة القلب، ومن كان كذلك فهو غبى أحمق، لا يقدر النعمة، ولا يحرص على إسعاد نفسه. ولذلك كان عرضة للوم والنقد، بل كان عرضة للاستخفاف به، والدعاء عليه بالهلاك والخسران، وهذا المعنى متجسد فى قوله عليه السلام: «تربت يداك» أى التصقت يداك بالتراب، وفى هذا كناية عن الفقر الذى يصيبه والحرمان الذى يناله حينما يقصر فى اختيار ذات الدين.

والإسلام سوى بين الزوج والزوجة فى هذا المضمار فكما أن الرجل يبحث عن ذات الدين كذلك الزوجة تبحث عن طريق ولى أمرها عن الزوج الصالح.

وهذا المعنى حدده النبى عليه السلام فى صراحة ووضوح حيث يقول مخاطبا أولياء الأمور: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير».

وليس هناك أبلغ من هذا التهديد لأنه إذا تركت القيم الصالحة تحت وطأة المادية المستبدة، والرغبات العارمة، والشهوات الجامحة، اختلت الموازين وكثرت الفتن، وانتشر الفساد.

والنفس البشرية أمارة بالسوء، فلو تركت وشأنها لتحولت إلى وحش كاسر يلتهم كل شيء في سبيل أنانيته ورغباته.

ومن هنا فإن الإسلام رسم للأسرة خطا واحدا لا ينحرف ولا يميل وهو خط الدين.

وبهذا الخط تتخطى الأسرة مشكلاتها الجارفة التي تقف في طريقها لتهدد كيانها، وتقضي على وجودها.

قد تخطيء الزوجة، وقد يخطيء الزوج، وبسبب هذا الخطأ قد تندلع نيران الغضب، ويشتد أوار الأزمة التي ربما أدت إلى الطلاق ولا يطفيء هذه النيران، ولا يخمد أوار هذه الأزمة غير الدين، الدين الذي يأمر بالتسامح، الدين الذي يذكر بالمودة، الدين الذي يرغب في الإحسان.

أذكر أن رجلا جاء لعمر رضي الله عنه، وقال له: إن حبه لزوجته قد خبا، وإنه يريد أن يستبدل بها. فقال له: ويحك؟ أو كلّ البيوت تبنى على الحب؟ أين تقوى الله وعهده؟ وأين حياؤك منه؟ وقد أفضى بعضكم إلى بعض، وأخذ الله تعالى منكم ميثاقاً غليظاً.

وسأل رجل الحسن البصري في خاطبين تقدما لابنته: أيهما يزوج؟ فقال له: أرضاهما دينا، فإنه إن أحبها أكرمها، وإنْ كرهها لم يظلمها.

ومن هذه الأسس:

رعاية الأولاد وتربيتهم في إطار الإسلام وتنشئتهم عليه

والإسلام اهتم بالأولاد في أطوار حياتهم المختلفة.

اهتم بهم في بطون امهاتهم حينماكانوا أجنة، فأباح للأمهات الفطر في رمضان إذا خشين على أجنتهن الهلاك.

وأرشدنا إلى حسن استقبالهم حينما يفتحون أعينهم على هذا الوجود وذلك بشكر الله وذكره، وإسماع الوليد بطريق أذنه هذا الذكر حيث أرشدنا الإسلام أن نؤذن في أذنه اليمنى أو نتلو إقامة الصلاة في أذنه اليسرى.

وما أجملها إشارة عظيمة حيث نعلن هذا الوليد بصوت الإسلام منذ اللحظة الأولى في هذا الوجود.

ومن حق أفراد الأسرة أن يتمتعوا تمتعا ماديا بجانب المتعة الروحية فسنت العقيقة التى يذبح لها المسلم فى تمام الأسبوع الأول من ولادته شاة أو شاتين لمن استطاع.

ولم يترك الإسلام الوليد يربى وفق الرغبات والأهواء، فقد شرع له من القوانين التى تحميه وترعاه حتى يبلغ سن الرشد.

والفقه الإسلامى زاخر بهذه القوانين فى الرضاعة، فى الفطام، فى الحضانة، فى النفقة، وفى التربية.

والإسلام يطالب الآباء والأمهات أن تكون القاعدة التى تقوم عليها التربية هى الدين، فبالدين نغرس فى نفوس الناشئة حُبّ الفضائل من سلوك وقيم، لتصبح هذه الفضائل حين التعود عليها جزءا من كيانهم، وطابعا لشخصيتهم، وبذلك تسهم الأسر فى نشر الفضائل فى المجتمع ليكون مجتمعاً فاضلا، وقد علَّمنا رسول الله ﷺ أن مسئولية تنشئة الأولاد على الدين مسئولية كبيرة جدا حيث يقول عليه السلام:

«كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

ولا أدل على ذلك أيضا من أنه عليه السلام سمع أما تنادى وليدها، وترغبه ليقبل عليها، وتقول له: تعال أعطك، وتشير إلى شىء، ولم ير النبى عليه السلام معها شيئاً. فقال لها: ما أردت أن تعطيه؟ قالت: ثمرة معى فقال ﷺ أما انك لو لم تفعلى لكتبت عليك كذبة.

يا لله، إنه الصدق الذى يربى الإسلام الناشئة عليه ليكونوا المجتمع الصادق وما أحوج المجتمع إلى الصدق. إنَّ الصدق حينما نلفظ به يعتبر كلمة واحدة فى عداد الكلمات، ولكن كلمة الصدق فى حقيقتها تحتها كل الكلم، وفيها كل التقدم، بل فيها سر الحياة الكريمة، والحرية العظيمة، والتطور الكبير، وما أحقر الكذب، أنه يأكل الفضائل كما تأكل النار الحطب، والمجتمع المجرد من الصدق مجتمع عار من كل شىء، مشوه فى تقدمه، مخادع فى تطوره، منافق فى تحرره مزعزع فى بنائه.

والإسلام حينما يأمر بهذه الرعاية للأبناء، فإنه يأمر الأبناء أيضاً حينما يضعف الآباء وتقل قدرتهم على العطاء أن يبروهم، ويحسنوا إليهم، والبر فريضة واجبة، من تخلف عنها فى

مجال الأبوة كان غادراً خائناً، لأنه لم يرد أن يردّ الدَّين، ونسى ماضيه الحافل بالمتاعب المملوءة بالكفاح والنضال من أجل تربيته وتكوينه.

ولهذا، فإن عقوبة العاق لوالديه كبيرة وخطيرة، فقد جعل عليه السلام العقوق من أكبر الكبائر.

ويكفى أن الله سبحانه وتعالى جعل البر بالوالدين مقرونا بطاعته فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(١).

هذا والتربية فى مجال الأسرة تنقلنا إلى مجال أوسع وأكبر هو التربية فى إطار الأخوة.

التربية فى إطار الأخوة

نعم، إن الإسلام حرص الحرص كله على أن يبنى الأمة على أسس الوحدة التى لا تعرف التفرق، والقوة التى لا تعرف الضعف، والحب الذى لا يعرف الكراهية والبغض.

وفى ظلال الوحدة والقوة والحب يتعالى المسلم على الجنس والعصبية والدم واللون، ليحيا حياة جديدة، الإيمان رائدها، والعقيدة شعارها، وإذا كان رباط الأخوة فى الأسرة الصغيرة يقوم على الدم فإن رباط الأخوة فى الأسرة الكبيرة يقوم على الروح والمودة.

وبذلك الرباط تتحول الأمة جميعا على اختلاف أجناسها وألوانها إلى أسرة واحدة الإسلام منها بمثابة الأب الذى تنتسب إليه أفرادها جميعا، وحينئذ تتحول القلوب إلى الاستمساك به، والدفاع عنه، والموت فى سبيله، وقد صور هذا المعنى شاعر عربى مسلم فقال:

أبى الإسلام لا أب لى سواه
إذا افتخروا بقيس أو تميم

وقد رسم الإسلام لهذه الأخوة معالم واضحة، ترشد الضال، وتنير الطريق للحائر، وتعلم المسلم كيف يتعامل مع إخوته المسلمين.

فمن هذه المعالم:

الإحساس بحاجات المؤمنين مادية أو معنوية، فهذا الإحساس يتطلب المزيد من الرعاية، والرحمة والحنان.

---

(١) الإسراء/ ٢٣.

وقد وضع الرسول عليه السلام هذا الإطار الكبير لهذه الرعاية فقال: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا بن آدم مرضت فلم تعدنى، قال: يارب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدى فلانًا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لوعدته لوجدتنى عنده.

يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمنى قال يا رب: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى.

يا بن آدم استسقيتك فلم تسقنى قال: يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو أسقيته لوجدت ذلك عندى». رواه مسلم.

ومن هذه المعالم ارتباط الأخوة المومنين جميعا برباط العقيدة، وسد الثغرات أمام من ينفذ منها لتفريق الكلمة، وبث الفتنة، وإثارة النزاع.

يصور ذلك القرآن الكريم فيقول: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾(١).

ومن معالم الأخوة التعامل بالأدب والخلق، فلا يسمح الإسلام بالنيل من كرامة مسلم، أو السخرية به أو عرض عيوبه على الملأ، فالمسلمون جميعًا جسم واحد، ولا يصح لمسلم عاقل أن يصوب السهم إلى نفسه، أو يحطم بناءه بيده.

يصور ذلك القرآن الكريم فيقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾(٢).

ومن معالم هذه الأخوة القضاء على دواعى البغض والحقد، وذلك بسد الباب أمام هواجس النفس، وخطرات الفكر التى قد تكون قائمة على غير أساس.

يصور القرآن الكريم ذلك فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ

(١) آل عمران/ ١٠٢. (٢) الحجرات/ ١١.

وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

والتسامح والغفران من أوضح معالم هذه الأخوة فقد روت أم سلمة رضى الله عنها قالت ما معناه:

«جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ فى مواريث بينهما قد درست، ليس عندهما بينة، فقال رسول الله ﷺ: إنكم تختصمون إلىّ وإنما أنا بشر، ولعل بعضهم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضى بينكم بما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها فى عنقه يوم القيامة.

فبكى الرجلان، وقال كل منهما: حقى لأخى فقال رسول الله ﷺ: «أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما ثم استهما، ثم ليحلل كل منكم صاحبه».

ولهذا، فإن هذه الأخوة قدسيتها مستقرة فى القلوب والنفوس، من خرج عليها، أو نال منها، كان جزاؤه شديدا، وعقابه صارما وليس هناك عقاب أشد من لعنة الله، لأن اللعنة طرد من الرحمة الإلهية. ومن طرد من رحمة ربه كأنه خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق.

يصور هذه الحادثة التى تدل على قدسية هذه الأخوة.

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره، فقال له: «اذهب واصبر، فأتاه مرتين وثلاثا، فقال له: اذهب فضع متاعك على ظهر الطريق فوضعه فجعل الناس يمرون عليه ويسألون فيخبرهم خبر جاره، فجعلوا يلعنونه، فجاء إلى النبى ﷺ. فقال يا رسول الله، لقيت من الناس قال: ما لقيت منهم؟ قال: يلعنوننى قال: لقد لعنك الله قبل الناس.. فقال: إنى لا أعود فجاء الذى شكا وقال: ارفع متاعك فقد كفيت».

ومن معالم هذه الأخوة الايثار، والايثار حرمان النفس، وإعطاء الغير، وهى تربية إسلامية تنسى المسلم نفسه فى سبيل غيره.

يصور ذلك القرآن الكريم فيقول: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ

(١) الحجرات/ ١٢.

إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(١).

على أن هذا الحب الأخوى ليس سهل المنال، لأنه لا يقدر عليه إلا أولوا العزم من الرجال.

ولذلك فإن هؤلاء الذين التزموا شعاره، وطبقّوا منهجه سينالون من الله تعالى درجات لا تعدلها درجات، إنها درجات كبرى يغبطهم عليها الأنبياء والشهداء يوم القيامة.

يصور ذلك النبى عليه السلام فيقول: «إن من عباد الله ناسًا ما هم أنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى قالوا: يا رسول الله فخبرنا من هم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس وقرأ هذه الاية: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

وبعد، فاننا اذا استطعنا أن نتربى عى هذه المستويات مستوى العقيدة ومستوى الأسرة، ومستوى الأخوة استطعنا أن نخطو بمجتمعنا العربى والإسلامى خطوات واسعة إلى الأمام.

أرجو الله أن يلهمنا إلى ما فيه الخير والرشاد.

(١) الحشر/ ٩. (٢) يونس/ ٦٢.

٦ ـ مكانة العقل فى الفكر الإسلامى(*)

حقيقة العقل

احتدم الجدل والنقاش بين العلماء والفلاسفة قديما وحديثًا حول العقل، وتساءلوا: ما حقيقة هذه الكلمة؟ وما المعانى التى ترمز إليها؟ وهل العقل هو العلم أم القلب؟

قضايا أثيرت فى التراث الإسلامى حول حقيقة العقل، واستمر باب الحوار والنقاش مفتوحا على مصراعيه حولها فى عصرنا الحاضر، وحتى فى اللغة نجد هذا الخلاف الدلالى لهذه الكلمة.

ففى (لسان العرب) العقل: الحجر والنهى، ضد الحمق. وهو: التثبت فى الأمور، وهو: القلب، وهو التمييز الذى يتميز به الإنسان عن سائر الحيوان(١).

وإذا استمعنا إلى الفلاسفة، لنعرف رأيهم فى معنى العقل رأينا اختلافًا بينا فى هذا المجال، فأبو بكر بن العربى الفيلسوف ينكر هذه التسمية لهذه القوة الخفية ويقول: «إنها أسماء لا فائدة تحتها، وتهويلات لا طائل وراءها، وذلك أن الأشياء والمدركات تسمى فى نظرنا علمًا لا عقلاً حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٢) كما أطلق عليها عقلا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٣).

وبهذا الاعتبار فالعقل عنده هو العلم، وهو صفة يتأتى بها درك العلوم»(٤).

العقل عند ابن رشد

وابن رشد الفيلسوف العربى يحتفظ للعقل بتسميته، لأنه يرى أن عقل الإنسان ليس فى مستوى واحد فى إدراكه للأشياء، فهناك عقول نافذة تغوص إلى العمق، وتضع يدها على الخيوط الدقيقة لتربط الأشياء، وهناك عقول دون هذا المستوى، لأنها تقف فى الربط بين

(*) نشر فى مجلة التضامن الإسلامى ـ السعودية ـ السنة السادسة والثلاثون الجزء العاشر ـ فبراير ١٩٨٢م.

(١) انظر لسان العرب مادة: «عقل».

(٢) النمل: ٥٢. (٣) الرعد: ٤

(٤) آراء أبى بكر بن العربى الكلامية ١/ ١٤٢، ١٤٣.

الصفات الظاهرة والأمور الواضحة. والمستوى العقلى الأقل فى نظره من هذين النوعين تلك العقول التى لا تدرك أسرار ربط المدركات الخفية أو الظاهرة، وإنما تقف فقط لتستجيب للألفاظ الرنانة، والأدلة الخطابية الوعظية.

فابن رشد يقسم العقل الإنسانى إلى ثلاثة أنواع: يقول:

«النوع الأول: العقول البرهانية القادرة على متابعة دليل يقينى محكم وتصل إلى نتائج بينة ضرورية، وربط هذه الأدلة هو الذى يكون الفلسفة، ولكن هذا لا يتسنى إلا لقلة من العقول الموهوبة بالقدر الذى يجعلها تكرس نفسها لها.

والنوع الثانى: عقول منطقية تكتفى بالبراهين الجدلية.

أما النوع الثالث: فهو العقول التى تستجيب للوعظ، والأدلة الخطابية وهذه غير مهيأة لاتباع الاستدلال المنظم.

والعقول الأخيرة نجدها عند الناس العاديين، وهم السواد الأعظم الذين لا يستجيبون إلا للخيال والعاطفة فحسب»[1].

تعقيب

وفى نظرى أن العقل قوة خفية تدرك بها الأشياء، وهى هبة سماوية تستطيع فى ضوئها أن تميز ين الحق والباطل، بين الخبيث والطيب، بين النافع والضار، بين الحسن والقبيح، سواء حملت هذه القوة الخفية اسم العقل، أو اسم القلب، أو اسم العلم.

نعم إنها قوة خفية لا تقع تحت مجهر، تستطيع أشعتها أن تمتد إلى السماء أو الأرض باحثة عن المعرفة، لتقف على أسرار الكون، وخفايا الوجود.

كلمتان فى العقل

وفى تراثنا العربى رجلان من رجال الأدب والفكر استطاعا أن يضعا حدوداً لهذا العقل قبل أن يعيش فى أعماقه فلاسفة العصر الحاضر بما يوضح أن ما يقال اليوم عن العقل لا يختلف عما قيل فى تراثنا العربى والإسلامى:

أحدهما: الجاحظ فى رسالته المشهورة: «المعاش والمعاد» حيث يقول: «فإنما حمدت

(١) تراث الإسلام لشاخت ترجمة الدكتورحسين مؤنس ٢٠٩.

العلماء بحسن التثبت فى أوائل الأمور، واستشفافهم بعقولهم ما تجىء به العواقب، فيعلمون عند استقبالها ماتؤول به الحالات فى استدبارها، وبقدر تفاوتهم فى ذلك تستبين فضائلهم، فأما معرفة الأمور عند تكشفها، وما يظهر من خفاياها فذاك أمر يعتدل فيه الفاضل والمفضول، والعالمون والجاهلون»[1].

وثانيهما: الأديب المفكر ابن عبد ربه فقد عرف العقل: بأنه متقبل للعلم لا يعمل فى غير ذلك شيئا»[2].

سر محير

على آية حالة كانت فان تفسير القدماء والمعاصرين من رجالات الفكر الإسلامى متقاربة وكلها تدور حول معنى واحد هو وظيفة هذا العقل، وليس لنا أن نتساءل بما يعجز عن الإجابة عنه العقل فنقول: ما العقل؟ إنه سر وقف فيه أصحاب العقول حائرين كما وقفوا إزاء الروح التى تملأ الكون حركة، والدنيا عمارا، والحياة ازدهارا، وصدق الله العظيم: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا﴾[3] وما يقال عن الروح يقال عن العقل لأنه من أمر الله، وليس للعقل الذى فينا أن يتطاول إلى غير مداه. وكل الذى يهمنا نحن البشر ـ أن نلمس أثار هذا العقل فى حياتنا فى ميادين العلم والمعرفة، والسلوك والأخلاق، والبحث فى هذا الكون العريض، لنركع فى خشوع أمام مبدعه ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[4].

رأى الامام الرازى

وقد أصحاب المحز الامام أبو بكر محمد بن زكريا الرازى فى كتابه: «الطب الروحانى» حينما عدد لنا منافع هذا العقل، ودلنا على منابعه التى نستطيع أن نرتوى منها فنعرف أسراراً كثيرة عن هذا الوجود العظيم قال:

إن الباري عزّ اسمه إنما أعطانا العقل، وحبانا به، لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة

(١) رسائل الجاحظ ١/ ٩٥ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.
(٢) نقلا عن تجديد الفكر العربى للدكتور زكى نجيب محمود ٣١٠.
(٣) الإسراء: ٨٥.
(٤) النمل: ٨٨.

غاية ما فى جوهر مثلنا نيله وبلوغه، وإنه أعظم نعم الله عندنا، وأنفع الأشياء لنا، وأجداها علينا.

فبالعقل فضلنا على الحيوان غير الناطق حتى ملكناها وسسناها وذللناها وصرفناها فى الوجوه العائدة منافعها علينا وعليها.

وبالعقل أدركنا جميع ما ينفعنا ويحسن ويطيب به عيشنا، ونصل به إلى بغيتنا ومرادنا، فإنا بالعقل نلنا صناعة الطب الذى فيه الكثير من مصالح أجسادها، وسائر الصناعات العائدة علينا النافعة لنا، به أدركنا الأمور الغامضة البعيدة المستورة عنا، وبه عرفنا شكل الأرض والفلك، وعظم الشمس والقمر، وسائر الكواكب وأبعادها وحركاتها، وبه وصلنا إلى معرفة البارىء عز وجل الذى هو أعظم ما استدركنا.

وبالجملة فإنه الشىء الذى لولاه كانت حالتنا حالة البهائم، والأطفال والمجانين»[1].

مكانة العقل فى القرآن والسنة

وقد رفع القرآن الكريم من شأن العقل، فكثير من الآيات القرآنية تطلب التحلى به، والتمسك بأهدابه والسير فى طريقه.

وقد حاولت أن أحصر ورود هذه الكلمة التى تقوم عليها تصرفات الإنسان، وتفسر سلوكه فى الحياة، فوصلت إلى ما يأتى.

ا ـ صيغة «عقلوه» جاءت مرة واحدة فى قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾[2].

ب ـ صيغة: «تعقلون» تكررت ٢٤ مرة، ومعظمها جاء على صورة الرجاء: «لعلكم تعقلون»، وعلى صورة الاستفهام: «أفلا تعقلون».

جـ ـ صيغة: «تعقلون» تكررت ٢٢ مرة، منها ١٠ صيغ بدون نفي، ١٢ صيغة جاءت منفية بلا النافية: «لا يعقلون».

د ـ صيغة: «نعقل» جاءت مرة واحدة فى قوله تعالى: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾[3].

---

(١) نقلا عن «مقام العقل عند العرب» لحافظ طوقان ١٠.

(٢) البقرة: ٧٥. (٣) الملك: ١٠.

هـ ـ صيغة: «يعقلها» جاءت مرة واحدة فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾(١).

من هذه الاحصائية ينقرر فى وضوح أن العقل فى القران الكريم شغل كثيرا من آياته التى وصفت المؤمنين الذين آمنوا بربهم بأنهم عقلاء، يتدبّرون آيات الله، ووصفت هؤلاء المنحرفين بأنهم قوم لا يعقلون «إن هم إلاكالأنعام بل هم أضل».

إن الأمثال المتعدّدة التى يضربها الله تعالى لخلقه؛ لنأخذ منها العبرة والعظة لا يسبر غورها، ولا يحيط بكنهها، ولا يدرك مداها إلا هؤلاء العقلاء الذين تدبروا وتفكروا، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾(٢).

وإذا يممنا وجهنا نحو الأصل الثانى من أصول الإسلام فى التشريع وهو السنة رأينا فى ذلك جملة من الأحاديث تشيد بالعقل والعقلاء وفى الوقت نفسه تذم الحمقى والجهلاء.

وفى المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى نجد مادة «عقل» تشغل حيزا كبيرا من صفحاته»(٣).

التراث والعقل

وقد حفظ لنا التراث الإسلامى عبارات عديدة صدرت من رجالات الفكر الإسلامى على مدى العصور حول مكانة العقل، والإشادة به، ولا تتسع صفحات هذا البحث لتسجيلها، وإنما نكتفى بمثال واحد حول العقل فى ميدان الخصومات أو فى ساحات القضاء. فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينص فى رسالته إلى أبى موسى الأشعرى على استعمال العقل فى الفصل بين الخصومات، إنها رسالة هى دستور القضاء إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها رضى الله عنه قال فى رسالته:

«لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه إلى رشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدورك مما ليس فى كتاب ولا سنة، ثم اعرف الاشباه والأمثال، فقس الأمور عند ذلك»(٤).

ولنا أن نتساءل بعد هذه النصوص التى قدمتها فى مكانة العقل، وسمو منزلته، هل

(١) العنكبوت: ٤٣. (٢) العنكبوت: ٤٣.
(٣) انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ٤/ ٢٩٨.
(٤) انظر الكامل للمبرد ١/ ١٣.

يستطيع العقل أن يطرق باب مالم يدركه؟ هل يستطيع العقل أن يبحث فيما وراءالعقل؟ تلك هى القضية، وسأحاول بسطها فى إيجاز فى النقطة الآتية:

العقل والغيب

هذا العقل الذى يخطط فى الحياة من أجله ومن أجل غيره، هذا الذى تغمر الوجود عطاياه، هذا العقل الذى أمد الحياة بالحركة والنشاط المذهل، هل ينفذ نوره إلى كشف أسرار الحياة، وطلاسم الوجود؟

كيف يفسر لنا العقل فى مجال ما يشاهده رفع السماء من غير عمد؟ كيف يفسر نظام المجموعات الشمسية التى تطل عليه فيرفع إليها طرفه فيرتد خاسئا وهو حسير؟ كيف يفسر لنا كشف أسرار الحياة فى المادة التى ماتت ثم تخرج منها الحياة مرة أخرى فى قوة وإعجاب.

هذا فيما يشاهده، وأما مالم يشاهده، فإن العقل أعجز من المشلول الذى لا يستطيع أن يتحرك.

كل هذه الأمور من السهل الاجابة عنها، لأنه من البدهى أن العقل مخلوق محدود مهما بلغ من الكمال والرقى فله مستوى معين لا يتعداه، وغاية لا يتجاوزها، وذلك «لأن المسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يكاد يعبرها العقل البشرى.. كيف يعبر العقل البشرى هذه المسافة الهائلة إلا بالإحالة على الإرادة المبدعة التى تقول للشىء كن فيكون»؟

«إن العقل إذا لم يعترف بهذه الارادة المبدعة عجز تماما عن التعليل والتفسير أو تخبط تخبط الفلاسفة فى شتى العصور»[1].

إن العقل لا يستطيع أن يمرر قضايا السموات والأرض، قضايا بداية العالم ونهايته، قضايا الغيب وما حوى من باب عقله الضيق، إنه لا يستطيع ذلك ولو استطاع ذلك لاستطاع الجمل أن يلج فى سم الخياط.

من أجل ذلك كان على العقل أن يلوذ بالصمت، وأن يسكت سكوت المحايد.

ولأبى بكر بن العربى موقف دقيق من هذا الذى يسمونه عقلا، فقد عرى العقل من كل ما يملك إزاء المدركات التى لا يستطيع أن يلوى عنقها نحو تفكيره لأنها أقوى منه بكثير. وقد

(١) انظر «خصائص التصور الأسلامى ومقوماته» للشهيد سيد قطب ١١٢.

رد على هؤلاء الفلاسفة الذين نزلوا العقل منزلة فوق منزلته، ومنحوه قدرا فوق قدره، وبين لهم أن دعوتهم حمقاء «لا تقوم على سوق، وهى الزعم بأن العقل قادر قدرة مطلقة على إدراك أو تحصيل جمع المعلومات إذ أنه ليس لنا أن ندعى أن له مكانا فى الإدراك يتيح له أن يحيط بكل شىء بمفرده واستقلاله، بل إن العقل متواضع ومحدود فى مجال إدراكه، إذ يوجد طور فوقه، وعال عليه لا يقوى على إدراكه، ولاعلى أن يطرق بابه، وإنما الذين يقوون على طرق بابه، والنفاذ إليه إنما هم الأنبياء الذين أوتوا وسائل توضيح حقائقه، والتعبير عن قانونه»[1].

وعلى هذا المنهج سار الغزالى فى كتابه: «المنقذ من الضلال» حيث يقول: وعلى الجملة فالأنبياء أطباء أمراض القلوب، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك، ويشهد للنبوة بالتصديق، ولنفسه بالعجز عن درك مايدرك بعين النبوة، وأخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين، وتسليم المرضى المزمنين إلى الأطباء المشفقين، وإلى ها هنا مجرى العقل ومخطاه، وهو معزول عما بعد ذلك إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه»[2].

حاجة العقل إلى الوحي

ومن هذا المنطلق كان العقل فى حاجة إلى الوحى فهو النور الذى يساعده على أن يسير فى دروب الحياة ثابت الخطا، رابط الجأش، ذلك لأن العقل لا يعيش إلا فى المدركات، والمدركات لها علاقة بالبيئات، والبيئات ألوان مختلفات، فقد تؤثر فيه تأثيرا سيئا فينحرف عن الصواب، ويميل إلى الخطأ، ويتجه إلى الباطل، ومن ثم يتحول إلى مارد جبار يدمر ولا يبنى، يهدم ولا يصلح، يشقى ولا يسعد، لما كان شأنه كذلك ربطه خالقه بالوحى على أيدى رسل كرام يعيشون على هذه الأرض يأكلون الطعام، ويمشون فى الأسواق.

ومن دونهم فإن مسئولية العقل فى الضلال موقوفة، وانحرافه عن جادة الصواب غير مؤاخذ بها لأنها تصرف فى حدود قدراته، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3].

(١) انظر «آراء أبى بكر بن العربى الكلامية ١/ ٤٤.

(٢) المنقذ من الضلال للامام الغزالى/ ٨٧.

(٣) الإسراء ١٥.